القُرآنُ الكَرِيمُ

وإقامَة أُمّةِ العِلْمِ

د. الحُسَيْن زرُّوق

دارُ السّلامِ
للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة

القرآن الكريم
وإقامة أمة العلم

بطاقة فهرسة
فهرسة أثناء النشر إعداد الهيئة المصرية العامة لدار الكتب والوثائق القومية - إدارة الشئون الفنية

زروق ، الحسيني
القرآن الكريم وإقامة أمة العلم / تأليف : الحسيني زروق . - ط ١ . - القاهرة : دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة ، [٢٠٠٩م] .
١٦٠ص ؛ ٢٠سم .
تدمك ٢ ٧٥٥ ٣٤٢ ٩٧٧
١ - القرآن والعلم .
٢ - القرآن - آداب التلاوة
أ - العنوان .

٢٢٩,٤٥

الطبعة الأولى
١٤٣٠هـ - ٢٠٠٩م

جمهورية مصر العربية : القاهرة - الإسكندرية
الإدارة : ١٩ شارع عمر لطفي موازٍ لشارع عباس العقاد خلف مكتب مصر للطيران عند الحديقة الدولية - مدينة نصر. هاتف : ٢٢٧٠٤٢٨٠ - ٢٢٧٤١٥٧٨ (٠٠٢٠٢) فاكس : ٢٢٧٤١٧٥٠ (٠٠٢٠٢)
المكتبة (١) : القاهرة - ١٢٠ شارع الأزهر الرئيسي - هاتف : ٢٥٩٣٢٨٢٠ (٠٠٢٠٢)
المكتبة (٢) : القاهرة - ١ شارع الحسن بن علي متفرع من شارع علي أمين امتداد شارع مصطفى النحاس مدينة نصر. هاتف : ٢٢٦٤٤١٢٤ (٠٠٢٠٢)
المكتبة (٣) : الإسكندرية - ١٢٧ شارع الإسكندر الأكبر - الشاطبي - بجوار جمعية الشبان المسلمين
هاتف : ٥٩٣٢٢٠٥ (٠٠٢٠٣) - فاكس : ٥٩٣٢٢٠٤ (٠٠٢٠٣)
بريديًا : ص.ب ١٦١ الغورية الرمز البريدي ١١٦٣٩
البريد الإلكتروني : info@dar-alsalam.com
موقعنا على الإنترنت : www.dar-alsalam.com

دار السلام
للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة
ش.م.م
تأسست الدار عام ١٩٧٣م وحصلت على جائزة أفضل ناشر للتراث لثلاثة أعوام متتالية ١٩٩٩م ، ٢٠٠٠م ، ٢٠٠١م في عمر الجائزة تتويجًا لعقد ثالث مضى في صناعة النشر

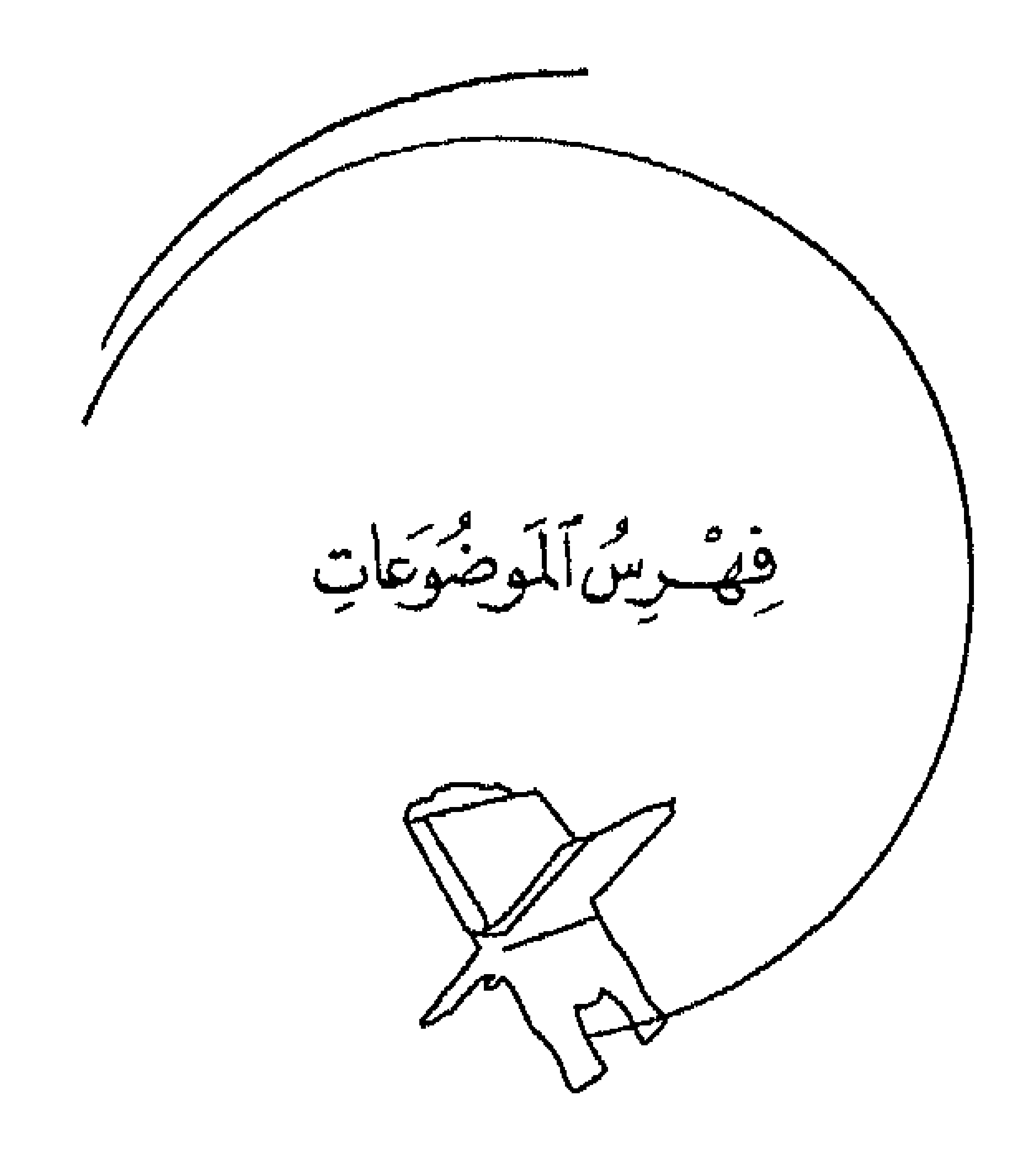


تأليف

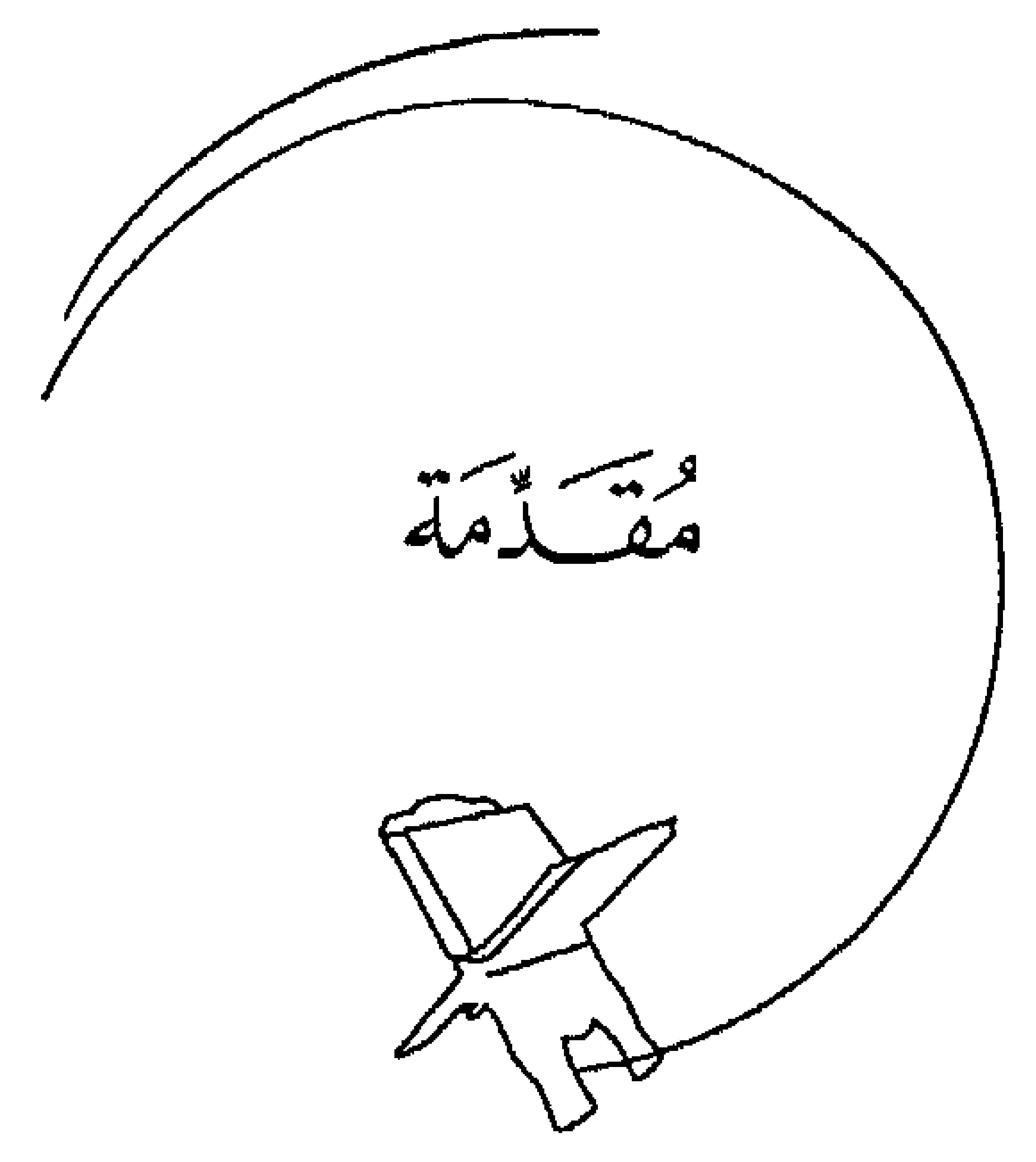
د. الحسين زرّوق

دار السلام
للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ


فِهْرِسُ ٱلمَوضُوعَاتِ

* * *



مُقَـدِّمَة

هذا البحث محاولة في فهم الكيفية التي تحقق بها مجتمع العلم الأول في الإسلام، وذلك انطلاقًا من العمل على اكتشاف آليات صياغة العقلية العلمية لدى المسلم، والبرمجة على العلم والمعرفة، وهي محاولة تجعل القرآن الكريم موضوعَ بحْثِها، تَنطلق معه منذ اللحظات الأولى لنزوله، ثم تغوص فيه باحثة عن الخيوط المُشَكِّلة لشبكة المعرفة التي سرعان ما تحولت من مستوى القرآن الكريم - باعتباره كتابًا مقروءًا - إلى واقع عملي ظهر في شكل عطاء علمي غزير، كشف عن نفسه في حضارة لا نظير لها.

وقد رأيت أن أمهد لتلك المحاولة بتمهيد أقدم فيه قراءة لواقعنا العلمي والثقافي والمعرفي ليشكل وفق ذلك كله تبصُّرًا بالمشكلة العلمية لأمتنا، وليكشف مدى عمق حاجتنا إلى بناء مجتمع تكون فيه للعلم الأولوية، مثلما كانت للأمر الإلهي الأول « اقرأ » الأولوية على كل الأوامر الأخرى.

أتبعت ذلك التمهيد بأربعة فصول:

الأول: بعنوان: « أُمَّة اقرأ »، يبحث سر النهضة العلمية للأمة الإسلامية من زاوية الأمر بالقراءة.

والثاني: بعنوان: « القرآن الكريم كتاب علم »، يُعنى بدراسة أهمية القرآن الكريم باعتباره كتاب علم، كما يتتبع أشكال عنايته ببرمجة اللاوعي على العلم والمعرفة.

والثالث: بعنوان: « القرآن الكريم كتاب الكتب »، يدرس نظرة القرآن الكريم إلى الأنماط المعرفية التي كانت سائدة لدى العرب، وموقفه منها.

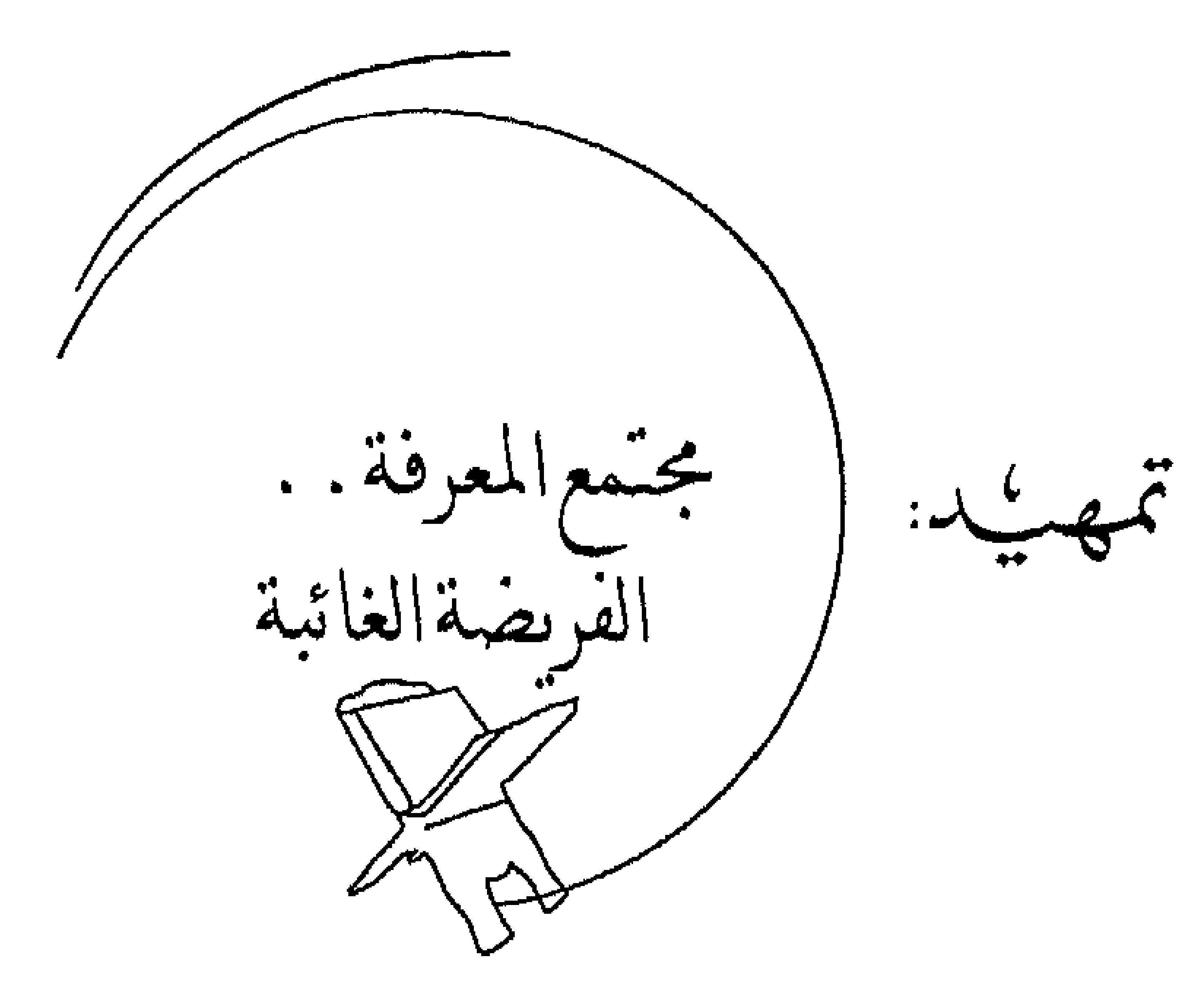
والرابع: بعنوان: « العلم والعلماء في القرآن الكريم »، يُعنى بما ورد في القرآن الكريم عن العلم والعلماء، وأثر ذلك على إقامة أُمَّة العلم والمعرفة.

وخلصت من ذلك إلى تسجيل مجموعة من الخلاصات أرجو أن تكون نافعة.

والله تعالى أسأل أن يكون هذا العمل خالصًا لوجهه الكريم، وأن يكون مما ينفع الناس ويمكث في الأرض، وأعوذ به أن يكون زبدًا يذهب جفاء، والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات.

الحسين زرّوق

* * *



يجد الباحث نفسه - وهو يتأمل الواقع العلمي والثقافي والمعرفي لأمتنا - أمام وثيقتين:

الأولى بعنوان: « الإستراتيجية الثقافية للعالم الإسلامي » أصدرتها المنظمة العربية للتربية والتعليم والثقافة (إيسيسكو) سنة (١٤١٩هـ / ١٩٩٨م)، وهي تكتسي قيمتها من حيث:

- كون الإيسيسكو صاحبة شرف إصدارها.
- كونها تُعنى بالمسألة الثقافية.
- كونها تتعلق بالإستراتيجية.

فالمسألة إذًا تتعلق بسد ثغرة في واقعنا الثقافي، من خلال ترشيده بإيجاد خطة تجمع بين الاستشراف والعناية بالمسألة الثقافية والتوحيد ولـمِّ الشمل؛ أي: إن الوثيقة استشرافية ثقافية موحِّدة، وهي سمات يعز أن نجد نظيرها، سيما إذا أضفنا إلى ذلك أنها صادرة عن منظمة مثل منظمة الإيسيسكو.

ومنذ مقدمة هذه الوثيقة « الإستراتيجية الثقافية... » نقرأ: « حاجة العالم الإسلامي إلى إستراتيجية ثقافية » ثم: « إن هدف الإسلام هو أن يتحول الإنسان من الجهل إلى العلم »[١].

وتحرص الوثيقة منذ البداية كذلك على قراءة الواقع: « إننا نلمس حيرةً وارتباكًا أمام تحديات وتدفق الحضارة الغربية المتميزة بأدواتها ووسائلها التكنولوجية التي تزداد فاعلية وانتشارًا، ولذلك فإن المثقف المسلم يشعر باضطراب الرؤية في تحقيق سبق علمي وتكنولوجي في المستقبل على أقرانه في المجتمع الإنساني »[٢].

وتلك الوثيقة إذ تقرأ الواقع المعاصر إنما تفعل ذلك من خلال تتبع مجموعة من الاتجاهات التي يسير نحوها عالمنا بناء على تحليل للماضي القريب ومعطيات الواقع الجاري، ومن ذلك:

- اشتداد الصراع الثقافي وسيادة الثقافة في كل الميادين؛ لأن التحدي الكبير الذي سيواجهه العالم في السنوات القادمة هو تحدٍ ثقافي بالأساس.

- تفاقم الأمية، حيث سيكون واحد من كل أربعة أفراد في العالم أميًّا، مع التركيز على تلازم الفقر والأمية.

- أثر التكنولوجيات الحديثة؛ مثل: الإعلاميات والبيوتكنولوجية، وصناعة المواد والألياف الجديدة، وانعكاس ذلك الأثر على ثقافة المجتمع.

---

(١) الإستراتيجية الثقافية للعالم الإسلامي، (ص ١٣).

(٢) م.س، (ص ١٤).

- بزوغ مجتمع الإعلاميات، وستصاحبه ثلاث قطيعات:

- القطيعة المتزايدة بين التنمية الاقتصادية واستهلاك المواد الأولية الطاقية وغير الطاقية.
- القطيعة بين دائرة تداول النقد والاقتصاد الحقيقي.
- القطيعة بين التنمية الاقتصادية وإيجاد فرص الشغل[١].

إضافة إلى ما سبق تحرص الوثيقة « الإستراتيجية ... » على بيان سبب العناية بالإستراتيجية الثقافية بتفصيلِ « دورِ الثقافة في مسيرة التنمية » من زاويتين مهمتين هما:

- الثقافة أساس التنمية.
- العلم جزء من الثقافة[٢].

وبذلك تكون تلك الوثيقة قد وضعت يدها على مكمن الداء في واقعنا المعاصر: إننا بحاجة ماسة إلى مراجعة تعطي المسألة الثقافية قيمة مركزية لشدة أهميتها في واقعنا، ولكون المرحلة التي نعيشها مرحلة تدافع حضاري.

والوثيقة الثانية بعنوان: « تقرير التنمية الإنسانية العربية للعام (٢٠٠٣م): نحو إقامة مجتمع المعرفة »، أشرف على إنجازها الصندوق العربي للإنماء الاقتصادي والاجتماعي سنة (٢٠٠٣م).

والوثيقة تُعرِّف مجتمع المعرفة بأنه: « ذلك المجتمع الذي يقوم

---

(١) م.س، (ص ٢٠ ، ٢١). (٢) م.س، (ص ٢٥ ، ٢٦).

أساسًا على نشر المعرفة وإنتاجها، وتوظيفها بكفاءة في جميع مجالات النشاط المجتمعي... وصولًا للارتقاء بالحالة الإنسانية باطراد؛ أي: إقامة التنمية الإنسانية »[١]، ويخلُص من ذلك إلى أن إقامة مجتمع المعرفة يقتضي « تأسيس نمط إنتاج المعرفة عوضًا عن هيمنة نمط الإنتاج الريعي الذي تشتق القيمة الاقتصادية فيه أساسًا من استنضاب المواد الخام، القائم الآن في أغلب البلدان العربية... »[٢]، فمجتمع المعرفة الذي يتحدث عنه التقرير يقوم على محورين أساسيين:

الأول: بناء القدرات البشرية المُمَكِّنة من التوصل إلى مستوى رفاه إنساني راق...

والثاني: التوظيف الكفء للقدرات البشرية في جميع مجالات النشاط الإنساني: الإنتاج، ومنظمات المجتمع المدني، والسياسة[٣].

فمجتمع المعرفة وفق ما سبق مجتمع يستثمر أساسًا في الإنسان باعتباره الرأسمال الحقيقي، وهو انعطاف كبير يجعل هذا المجتمع يتخلص من قيود الأنماط المجتمعية التقليدية المرهونة بالطبيعة بما فيها من مواد أولية، والعديد من الأنماط الاقتصادية القائمة على اليد العاملة، وبطء الإنتاج، وقلة الأرباح، مقارنة مع عائدات الاستثمار في مجال المعرفة، فقد « أصبحت المعرفة بصورة متزايدة محركًا قويًّا للتحولات

---

(١) تقرير التنمية الإنسانية العربية للعام (٢٠٠٣ م): نحو إقامة مجتمع المعرفة، (ص ٢، ٣).

(٢) م.س، (ص ٤٠).

(٣) م.س، (ص ١٨).

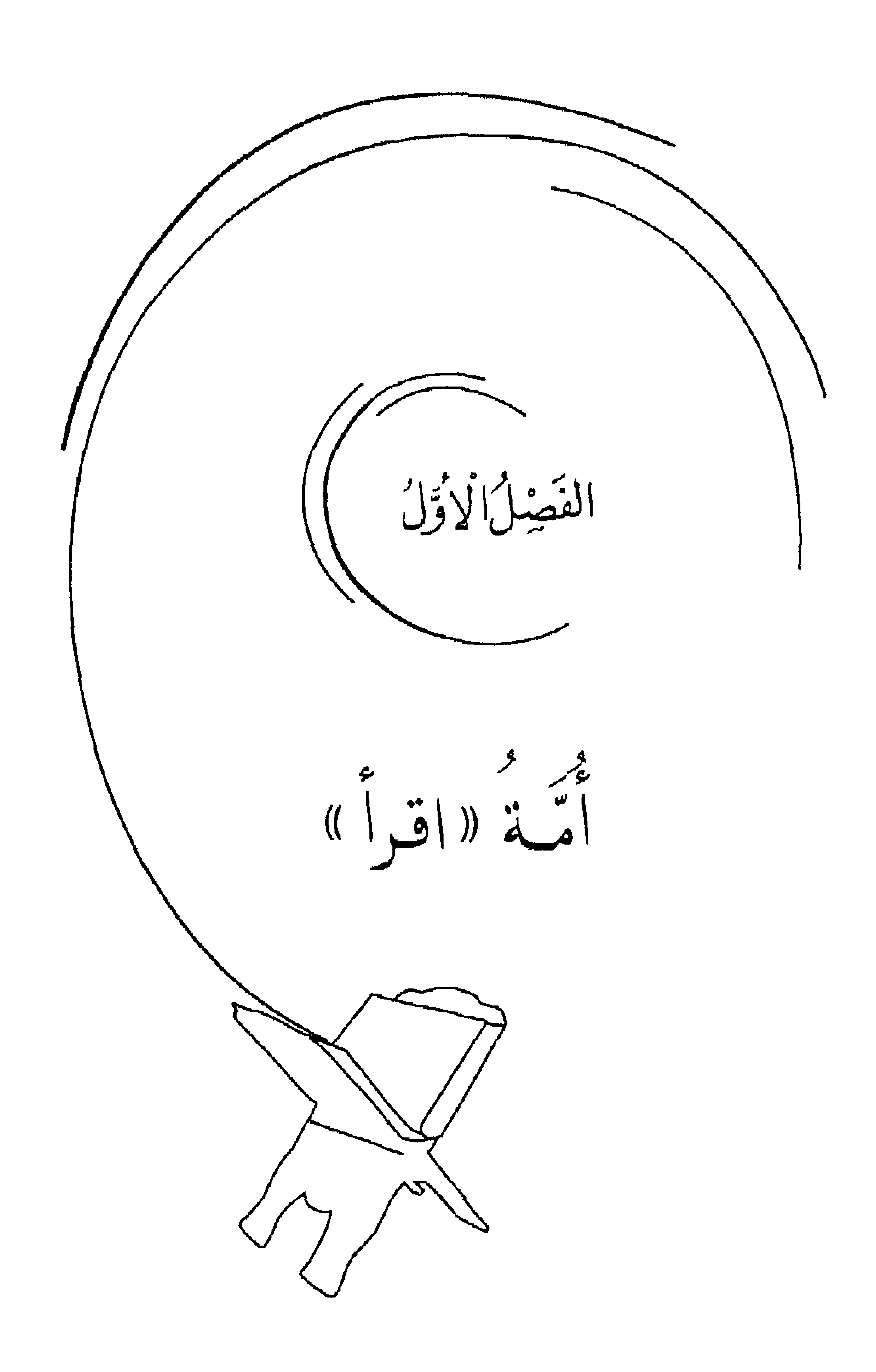
الاقتصادية والاجتماعية، وثمة رابطة قوية بين اكتساب المعرفة والقدرة الإنتاجية للمجتمع »[١].

والأمثلة كثيرة تسعفنا في الوقوف على حقيقة اقتصاد المعرفة، وحجم الثروة التي تتداول في هذا المجال وحده، فالتجارة الإلكترونية بالولايات المتحدة الأمريكية وحدها على سبيل المثال تصل إلى (١١٢) تريليون دولار[٢]، و(٨٩ ٪) من الشركات الأوروبية تدار عبر الإنترنت[٣]، والقيمة المالية لـ « google » (٥٥) مليار دولار، وهي تفوق قيمة شركة « جنرال موتورز » و « فورد » مجتمعتين[٤].

وعندما وقف تقرير التنمية الإنسانية العربية على واقعنا العربي لاحظ حجم الفجوة التي تفصلنا عن مجتمع المعرفة، وخلص إلى النتيجة التالية: « ضخامة نقص القدرة المعرفية الإنسانية في الدول العربية في عصر كثافة المعرفة، ويتجلى ذلك في قصور اكتسابها وإنتاجها على حدٍّ سواء »[٥]، ومن ثم عبر التقرير عن تلك الحقيقة بهذه العبارة اللطيفة: « المعرفة تكاد تكون الفريضة الغائبة في أمة العرب الآن »[٦].

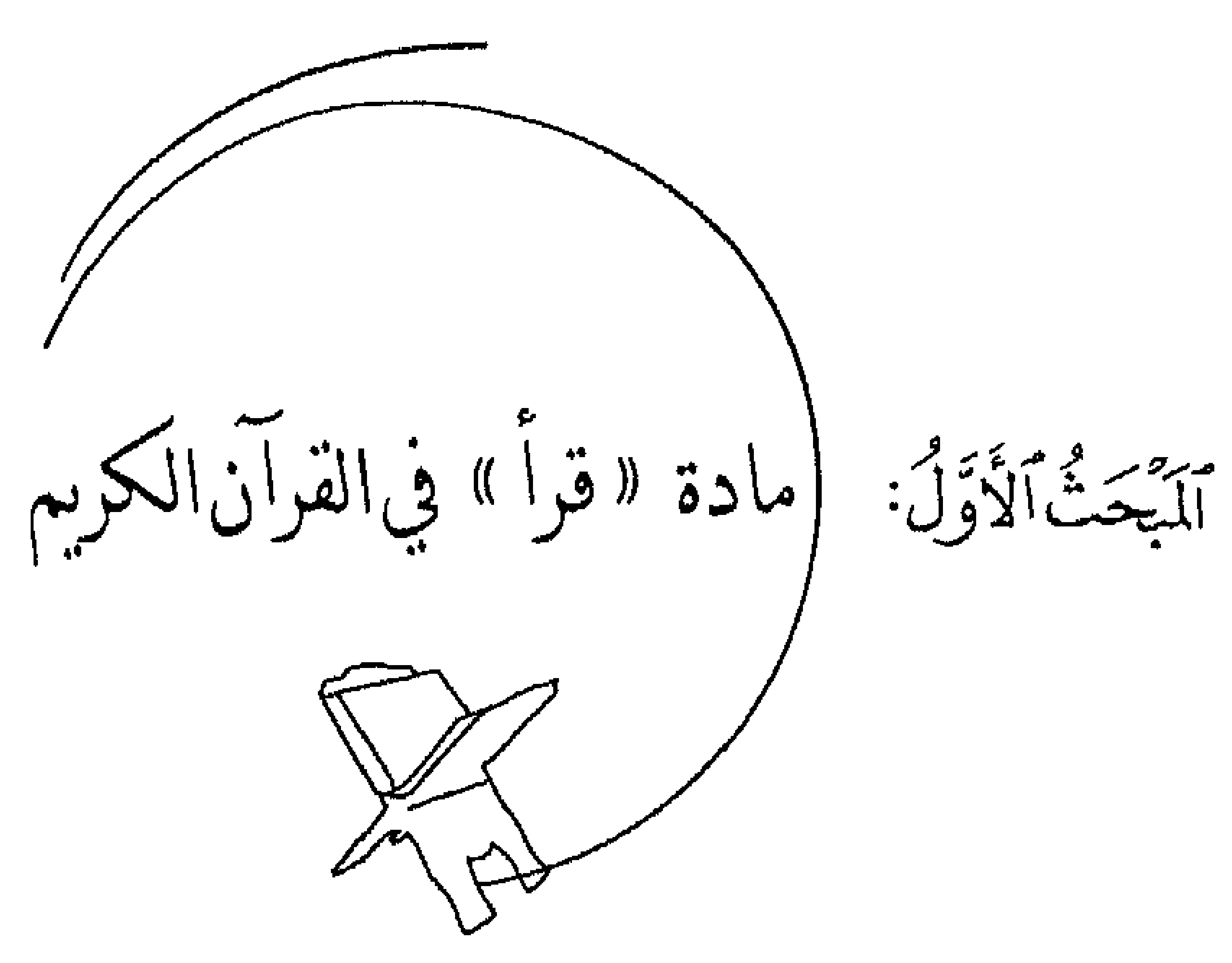
* * *

(١) م.س، (ص ٣).
(٢) العالم في عام، رصد رقمي لأحوال العالم، حسن قطامش، (ص ١٤٦).
(٣) أرقام تحكي العالم، محمد صادق مكي، (ص ١٩٦).
(٤) م . س، (ص ١٩٨). (٥) م. س(ص: ج).
(٦) م. س، (ص ١٢) .



الفَصْلُ الأوَّلُ

أُمَّـةُ «اقرأ»



المَبْحَثُ الأَوَّلُ: مادة « قرأ » في القرآن الكريم

ترد مادة « قرأ » في القرآن الكريم (١٧) مرة[١] ، دون أن نُدخل في هذا العد لفظ « القرآن »، والمادة السابقة كلها واردة في صيغ فعلية: (١٠) مرات منها متعلقة تعلقًا مباشرًا بالقرآن الكريم[٢] ، ونفهم من ذلك توجيهًا هو: ينبغي أن يكون القرآن الكريم أول مقروء، أما باقي مرات الورود فتتقاسمها أربعة مجالات:

- القراءة مطلقًا[٣].
- قراءة كتاب الأعمال يوم القيامة[٤].
- قراءة التوراة والإنجيل[٥].
- قراءة كتاب[٦].

---

(١) المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبد الباقي، (ص ٦٧٥ ، ٦٧٦).

(٢) النحل(٩٨)، والإسراء (٤٥)و (١٠٦)، والقيامة (١٨)، والشعراء(١٩٩)، والمزمل(٢٠)، والأعراف (٢٠٤)، والانشقاق(٢١)، والأعلى(٦).

(٣) العلق(١، ٣).

(٤) الإسراء (١٤، ٧١)، والحاقة (١٩).

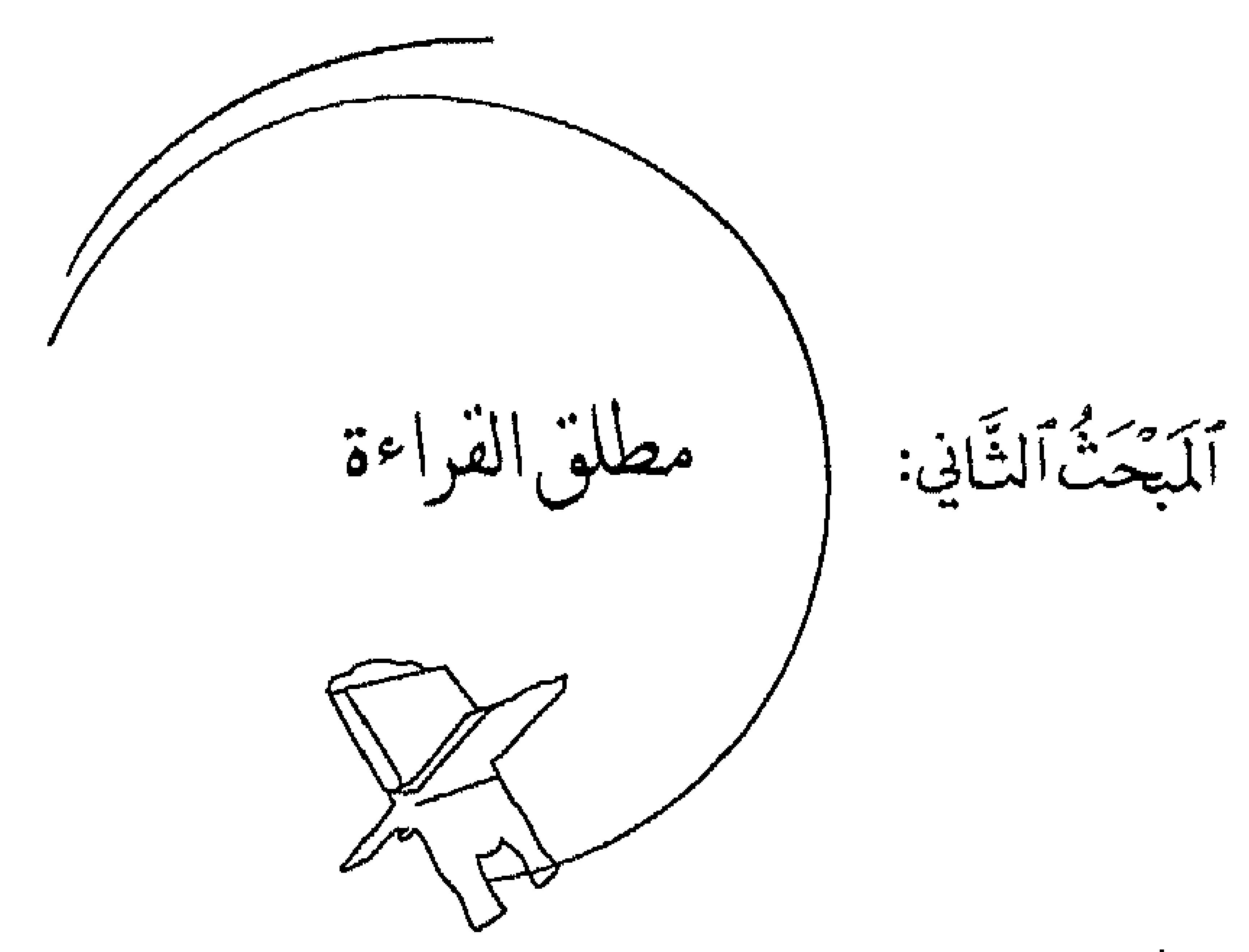
(٥) يونس(٩٤).

(٦) الإسراء(٩٣)، وهي تحكي مقالة قوم كافرين.

والقراءة وفق ما سبق قد تكون من الكتاب وقد تكون من المحفوظ، فأما كونها من الكتاب فهو الظاهر، سيما فيما يتعلق بارتباط مادة « قرأ » بالكتاب سياقيًّا كما في قوله تعالى: ﴿ ٱقۡرَأۡ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفۡسِكَ ٱلۡيَوۡمَ عَلَيۡكَ حَسِيبٗا ﴾[الإسراء: ١٤]، مما يعني أن القراءة تكون في الكتاب ومنه، غير أن أمر الرسول ﷺ بالقراءة في آيات أخرى دال على أن القراءة قد لا تكون من الكتاب أو فيه؛ بل قد تكون من الذاكرة والمحفوظ كما قلنا آنفًا، ومثاله قوله تعالى:﴿ فَإِذَا قَرَأۡتَ ٱلۡقُرۡءَانَ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴾[النحل: ٩٨]، وقوله كذلك: ﴿ وَقُرۡءَانٗا فَرَقۡنَٰهُ لِتَقۡرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكۡثٖ وَنَزَّلۡنَٰهُ تَنزِيلٗا ﴾[الإسراء: ١٠٦]، فإذا جمعنا بين هذا وبين أمية النبي ﷺ لم يكن أمامنا إلا أن نفهم قراءة النبي ﷺ على أنها قراءة من غير كتاب، وهذا له دلالة فيما نحن فيه: فإذا كانت القراءة مأمورًا بها، فإنه ليس من الضروري أن تكون من كتاب تصفحًا.

إن ما سبق يسمح لنا بتناول أمرين يتعلقان بالقراءة كما تناولهما القرآن الكريم: أحدهما يتعلق بالقراءة مطلقًا، والآخر يتعلق بقراءة كتاب الله تعالى.

* * *



ٱلمَبۡحَثُ ٱلثَّاني: مطلق القراءة

أُطلق لفظ القراءة مرتين في سورة واحدة هي سورة العلق: ﴿ ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ١ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ٢ ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ﴾ [العلق: ١-٣]، ينبغي أن نستحضر باستمرار أن هذا الأمر بالقراءة هو أول ما نزل من القرآن الكريم في القصة المعروفة بغار حراء.

يتعلق الأمر أولًا بأول كلمة نزلت، وهي في الوقت نفسه أول أمر على آخر نبي في آخر رسالة، وهنا تكمن أهمية أن نعي جيدًا سياق تلك اللفظة ودلالة نزول ذلك الأمر.

نزل الأمر بالقراءة قبل كل أمر بالصلاة والزكاة والصوم والحج...؛ بل نزل قبل الأمر بالتوحيد أيضًا، ورسالة ذلك واضحة: لا يمكن أن نعبد الله إلا إذا قرأنا، فالعبادة تمر عبر القراءة، وقد عبر قدماؤنا عن ذلك بقاعدة جليلة هي أن « الله لا يعبد بجهل »، ومن أجل أن تكون عبادتنا لله تعالى عن علم وبعلم كان لا بد أن نقرأ، وشبيه ذلك وتأكيده قول الله تعالى: ﴿ فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ

﴿ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَىٰكُمْ ﴾ [محمد: ١٩]؛ ولذلك وجدنا الإمام البخاري يُعَنْوِن بابًا من أبواب كتاب العلم في صحيحه بهذا العنوان « باب العلم قبل القول والعمل لقوله تعالى: ﴿ فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾ [محمد:١٩]، فبدأ بالعلم قبل العمل... »[١].

لا ننتبه إلى أن سياق نزول الأمر بالقراءة شديد الأهمية في فهم البعد الحضاري لديننا الإسلامي، وفي معرفة سر الروح التي سرت في الجسم الإسلامي ففاض بالعلم، وأنتج في فترة جَدِّ قصيرة علمًا كثيرًا، وجزء من ذلك العلم ما زلنا إلى الآن نعجب كيف وصل علماؤنا إليه؟ وكيف وُفقوا فيه؟ وكيف لا نستطيع تجاوزه؟ وكيف لا نملك إلا أن نسلم لهم فيه؟

إن المسألة لا تتعلق بمجرد أمر نزل على نبي؛ فقد نزلت على نبينا ﷺ أوامر كثيرة؛ لكنها لم تكن بالوزن نفسه:

نزل الأمر بالقراءة على رجل أُمِّيٍّ، مما يدل على أنه ليس أمرًا تكليفيًّا؛ بل أمرًا تكوينيًّا، « فالرسول ﷺ لم يكن متعلمًا حتى يقرأ شيئًا مكتوبًا، ولكنه أمر تكويني، أي: « صِر قارئًا » بحول الله وقوته...أي: « كن قارئًا » باسم ربك، لتكون قراءتك باسم ربك وأنت أُمِي من أعظم المعجزات الدالة على نبوتك، ويكون إقراؤك لأمتك وتزكيتها بالعلم الرباني لتصبح خير أمة من أعظم معجزات الوحي الصانع لأمة فريدة في التاريخ الحضاري »[٢].

---

(١) صحيح البخاري،(١/ ٣٨).

(٢) نظرات في الهدي المنهاجي في سورة العلق، د.الشاهد البوشيخي، جريدة المحجة، عدد (٢٧٢)، (١١/ ٠٢/ ١٤٢٨ هـ - ٠٢/ ٠٣/ ٢٠٠٧ م).

ونزل ذلك الأمر على رجل أُمِّيٍّ من أمة أمية، بدليل قوله ﷺ: « إنا أمة أمية لا نكتب ولا نحسب... »[١]، ولكن هذه الأمية لم تكن مانعًا من أن تتحول الأمة الأمية إلى أمة متعلمة ومعلِّمة في الوقت نفسه، والقدوة رسول الله ﷺ، فمع أنه كان أميًّا: ﴿ وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴾ [العنكبوت: ٤٨]، إلا أنه صار بعد أن سَرى فيه ماء القرآن الكريم عالمًا معلِّما، بل أعظم معلِّم للبشرية، وهو في ذلك كله لا يقرأ إلا من محفوظه، فلا يقرأ من كتاب ولا يخط، لتكون المعجزة أبلغ وأظهر، فإذًا الأمر بالقراءة كان إيذانًا بتحول عظيم في تاريخ البشرية كلها؛ لأنه أمر للبشرية جمعاء أن تصير قارئة.

ومع أن ذلك الأمر نزل على محمد ﷺ وهو مُخْتَلٍ في غار حراء إلا أنه أخرجه إلى البشرية جمعاء، لم يخرجه فقط إلى قومه قريش، ولا أخرجه إلى العرب فقط؛ بل أخرجه إلى الناس أجمعين كما في قوله تعالى: ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴾ [الفرقان: ١]، وكما في قوله ﷺ: « أُعطيتُ خمسًا لم يعطهن أحد قبلي: نُصرت بالرعب مسيرة شهر، وجُعلتْ لي الأرضُ مسجدًا وطهورًا؛ فأيما رجل مِن أمتي أدركته الصلاة فليصل، وأُحلَّتْ لي المغانم ولم تحل لأحد قبلي، وأُعطيت الشفاعة، وكان النبي

---

(١) صحيح البخاري، كتاب الصوم، باب قول النبي ﷺ: « لا نكتب ولا نحسب » (١/ ٤٥٢)، حديث رقم(١٩١٣).

يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس عامة »[١]، فالعجب من أمر حَوَّل قومًا من قيود الجغرافيا والقبيلة إلى رحابة الكون.

ونزول الأمر بالقراءة قبل كل أمر على محمد ﷺ مُشعر أن أمر القراءة ليس هينًا، سيما بعد أن تبين بعد توالي الوحي أن ذلك يتعلق بآخر نبي في آخر رسالة سماوية، فذلك يتعدى أن يكون مجرد تكليف لنبي بالقراءة والتعلم إلى أن يكون إشعارًا للبشرية جمعاء أن الرسالة الخاتمة هي رسالة العلم، وأن العلم هو الفيصل بين الحق والباطل إلى يوم القيامة، وأن عيار المعجزة في الرسالة الجديدة مختلف تمامًا عن عيار الرسالات السابقة.

كما أن « اقرأ » مشعرة أيضًا بأنه إذا كانت معجزات الأنبياء السابقين مادية انتهت فعاليتها بوفاتهم، واقتصرت مفعوليتها على معاصريهم، فإن الرسالة الجديدة ستحمل إلى البشرية نوعًا جديدًا من الإعجاز سيظل معهم باستمرار ما دامت هناك قراءة، وما دام هناك علم، ولذلك لا نعجب في هذا السياق أن معجزة محمد ﷺ الخالدة هي القرآن الكريم، حتى قال الباقلاني رحمه الله: « نبوة نبينا عليه السلام بنيت على هذه المعجزة »[٢]، نعم كانت له معجزات مادية، لكنها كغيرها من معجزات الأنبياء محكومة بزمنها.

أما القرآن الكريم فهو المعجزة المتجددة باستمرار، وتجددها واستمرارها رهين بالأمر الأول في الرسالة الأخيرة: « اقرأ »،

---

(١) صحيح البخاري، كتاب التيمم (١/ ٩٥)، حديث رقم(٣٣٥).

(٢) إعجاز القرآن، أبو بكر الباقلاني، (ص ٨).

وما دامت القراءة موجودة فالإعجاز سيظل قائمًا، وكلما قرأنا اكتشفنا المزيد من وجوه الإعجاز في كتاب ربنا، وكلما اكتشفنا وجوهًا جديدة من الإعجاز ازددنا إيمانًا ثم رغبة في اكتشاف المزيد، في حركة مستمرة.

وباستطاعتنا أن نفهم قيمة نزول الأمر بالقراءة في آخر رسالة سماوية الآن أكثر من أي وقت مضى؛ لأننا نعرف تاريخ البشرية بما يكفي لجعلنا نفهم أن سِرّ التركيز على القراءة هو ما سيكون للعلم من قيمة تقلب تاريخ البشرية رأسًا على عقب، وتُحدث فيه من التغييرات في الوقت الوجيز ما كان يحدث في القرون، ثم يتحول العلم إلى قوة الدفع الحقيقية لكل أمة تحترم نفسها، وتريد أن يكون لها موطئ قدم في مسيرة الحضارة، وفي ساحة التدافع الحضاري، ثم أكثر من ذلك أننا الآن نفهم أكثر من أي وقت مضى أن ذلك الأمر بالقراءة كان تنبيهًا لنا إلى ضرورة امتلاك ناصية العلم، وأننا عندما عطلنا ذلك الأمر وركبنا مَراكب الجهل والخرافة صرنا إلى ما نحن عليه اليوم من تخلف.

وعندما نعود إلى سياق ذلك الأمر بالقراءة نكتشف أمورًا أخرى كثيرًا ما نغفلها، أو ننظر إليها من زاوية ضيقة لا تخرجنا إلى رحابة الحضارة، وسنن التدافع الحضاري، ومن ذلك أن القراءة لا تكون لها قيمة لدينا إلا إذا كانت باسم الله تعالى، وعِلة أن تكون كذلك أن الله ﷻ هو:

- الرب.

- الذي خلق.

- الذي خلق الإنسان من علق.

- الأكرم.

- الذي علم بالقلم.

- علم الإنسان ما لم يعلم.

فقراءتنا باسم الله إذًا سببها أن الذي أمرنا بها هو الذي حدد لنا كيفيتها، وأنه لم يأمرنا بها ويحدد لنا كيفيتها إلا لأنه هو ربنا وخالقنا ومعلمنا...

ما سبق يثير ملاحظتين:

أ- القراءة مطلقة: مما يدل على أننا يجب أن نكون قراء نَهِمين، وأن تكون قراءتنا مستمرة، فالمدخل إلى العِلم قراءة نهمة.

ب- القراءة بمنهج: فقراءتنا باسم الله هي القراءة التي يقبلها ربنا منًّا، والله ﷻ طلب منًّا أن نقرأ باسمه، والقراءة باسم الله معناها أن يكون فعلنا القرائي ممنهجًا، وأن يكون عبادة، ولا يكون عبادة إلا إذا كان خاضعًا لشروط العبادة صحة وقبولًا، مما يعني أن القراءة ينبغي أن تكون مراعية للنسق الإسلامي حتى لا تكون فتنة، وحتى لا تكون لغير الله، وبغير اسمه.

وسياق « اقرأ » يتضمن شيئين آخرين غير « منهج القراءة » هما العلم والقلم، والألفاظ الثلاثة: القراءة والعلم والقلم

تشكل ثالوث صناعة المعرفة وتعميمها في زمن كانت المعرفة فيه من نصيب النخبة، فالعلم إنما يتم بالقراءة والتقييد، والتقييد يكون بالقلم، والقراءة تكون من ضمن ما تكون لما قُيد.

إن الأمر المثير للانتباه هو أن الآيات الخمس الأولى من سورة العلق - وهي أول ما نزل من القرآن الكريم - تتضمن وحدها ستة ألفاظ كلها تندرج ضمن مجال العلم: (اقرأ - اقرأ -علَّم - القلم - علَّم - يعْلَم)، وصل عدد الكلمات الأولى التي نزلت (٢٠) كلمة، ثلث هذا العدد تقريبًا يتعلق بالعلم والقراءة.

وأمر آخر مهم في الآيات الخمس الأولى من سورة العلق هو تكرر ذكر الرب مرتين، وتكرر ذكر الإنسان أيضًا مرتين، والله ﷻ يخاطب في هذه الآيات الإنسان، ويأمره بالقراءة والتعلم باسم الله، فالعلاقة بين المخلوق وخالقه كما نفهم من هذا السياق ينبغي أن لا تخلو من علم، إذ من البدهي أنه لن يكون هناك إقرار من المخلوق بفضل ربه عليه إلا إذا كان لديه علم، ولن يكون كذلك إلا إذا قرأ وتعلم، فمرد الأمر كله إذًا إلى القراءة والتعلم من أجل عبادة الله تعالى والإقرار بربوبيته وألوهيته.

وعندما نربط بين القراءة والعلم والقلم نفهم أن العلم أولوية الأولويات، وأنه لا علم بغير قراءة وكتابة، وأن الطريق إلى عبادة الله تمر عبر التعلم.

كما أن التركيز على الإنسان دال على أن أولوية الأولويات العناية به، ولا عناية به إذا تُرك جاهلًا، فمن الواجب علينا

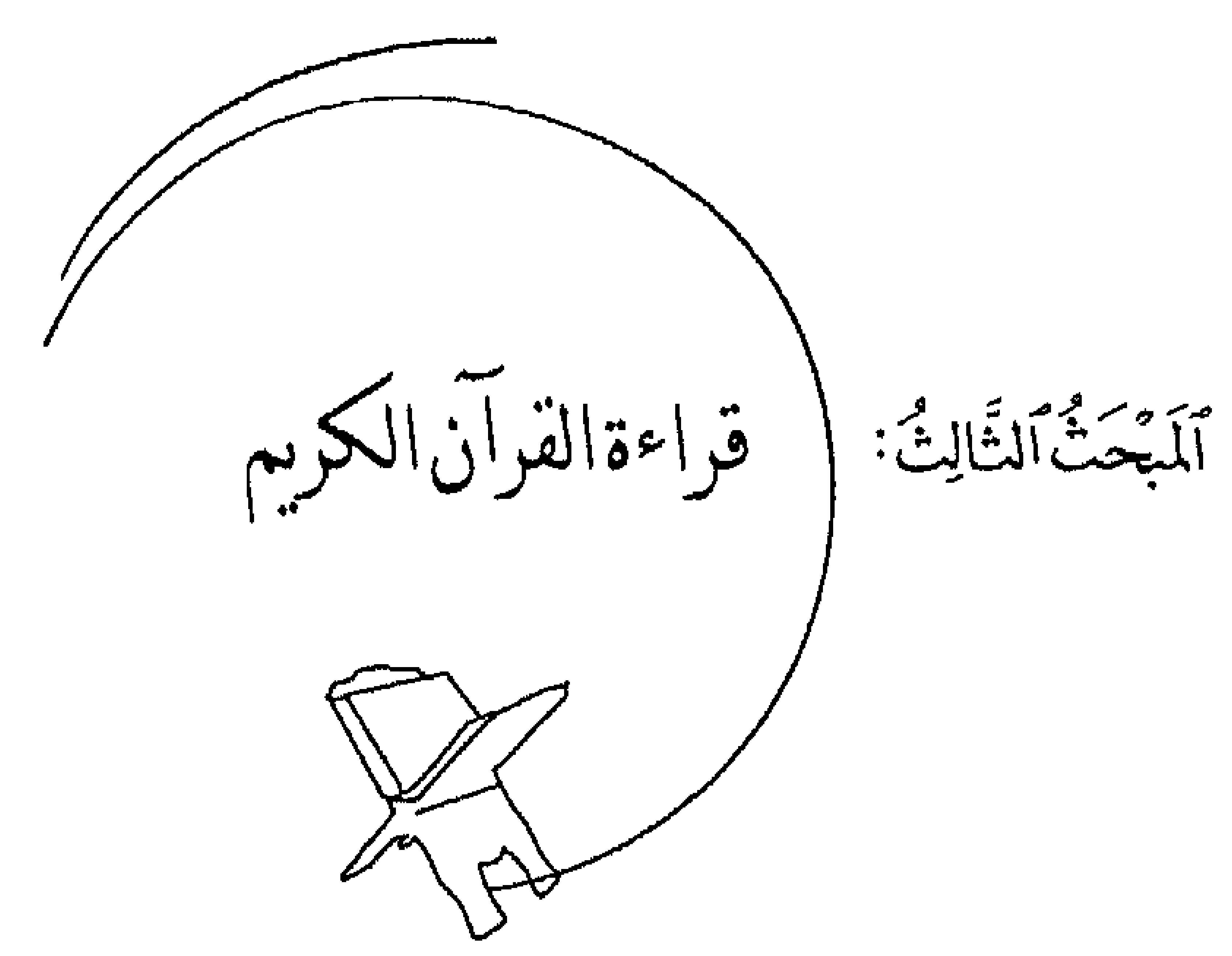
أن نُبلغه ما تعلمنا مثلما علمنا الله تعالى ما لم نعلم، ومن الواجب أن نشكر ربنا؛ لأنه علمنا، ومن طرق شكره أن نعلِّم الآخرين، وأن نقرأ عليهم، لكن ذلك لا يكون إلا باسم ربنا، وبذلك تكون رسالتنا الحقيقية في هذا الوجود هي أن نتعلم وأن نعلِّم وفق « شرعة الله ».

وعندما يكون ذلك كذلك نكون قد حققنا مبرر وجودنا في هذا الكون: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات ٥٦]، وقد صاغ الهديَ القرآني في ذلك كله أستاذي الدكتور الشاهد البوشيخي حفظه الله صياغة ذواقة للعبارة القرآنية، فقال: « **أولًا**: أول الطريق القراءة باسم ربنا، فبلا قراءة لا علم، وبغير اسم ربنا لا قدرة ولا انتفاع؛ أي: الإبصار بعين الوحي وميزانه ».

« ثانيًا: أول العلمِ العلمُ بربنا: خالقًا ومعلمًا لنا، ثم العلم بالإنسان (من حيث هو إنسان) مخلوقًا ومعلَّما من ربنا »[1].

* * *

(١) الهدي المنهاجي في سورة العلق، (ص ١٠).



المَبْحَثُ الثَّالِثُ: قراءة القرآن الكريم

ليس غريبًا أن يكون القرآن الكريم أول ما ينبغي أن يُقرأ، فلو لم يكن لذلك سبب إلا كونه كلام الله تعالى لكفى به سببًا، ولكن أسباب قراءته كثيرة لا يحيط بها عادٌّ، وسنقف على شيء منها في فصل لاحق، ويكفي هنا أن نشير إلى عبارتين في الدلالة على ذلك:

العبارة الأولى للوليد بن المغيرة الذي مات كافرًا، فعندما سمع القرآن الكريم سَمَاعَ عالِـم بفنون القول لدى العرب، قبل أن تستحكم منه نار الغفلة والهوى، ويحتال عليه أبو لهب ليمنعه من الإسلام بعد أن رق قلبه له، قال كلام رجل ذواقة، كلامًا عَزَّ أن نجد نظيره في التعبير عن حقيقة القرآن الكريم من آدمي: « قال: وماذا أقول؟ فو الله ما منكم رجل أعرف بالأشعار مني، ولا أعلم برجزه ولا بقصيده مني، ولا بأشعار الجن، والله ما يشبه الذي يقول شيئًا من هذا.

والله إن لقوله الذي يقول لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإنه لمثمر

أعلاه، مغدق أسفله، وإنه ليعلو ولا يعلى، وإنه ليحطم ما تحته»[١].

فكلام الرجل من قسمين: قسم يبين فيه كونه عالمـًا بفنون القول لدى العرب، محيطًا بها، وقسم يعبر فيه عن ذلك العلم بموقفه من القرآن الكريم بعد أن أجاد الإصغاء إليه، فجاء تعبيره عنه تعبيرًا ذوقيًا عجيبًا.

والذي يهمنا من كلام الرجل أن القرآن الكريم كله متميز، ليس فيه هابط وصاعد، ولا فيه مقبول ومردود، ولا يمكن مقارنته بغيره، فهو الكلام العالي الذي يحطم ما تحته، وما كانت هذه صفاته فكيف لا يكون مقروءًا باستمرار حتى يستمتع القارئ بحلاوة القرآن الكريم وطلاوته، ويجني ثماره ويتذوقها، ويعلو بعلوه.

والعبارة الثانية قول رفعه قوم، ورجح ابن كثير أن يكون رفْعُه وهمًا، وعدَّه من كلام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ﷺ، فبعْد أنْ سَرى ماء كتابِ الله تعالى في العروق انتعش البدن انتعاشة فاض لها اللسان معبرًا عن سر الروح التي سرت فيه، قال: «كتاب الله فيه نبأ ما قبلكم، وخبر ما بعدكم، وحكم ما بينكم، هو الفصل ليس بالهزل، من تركه من جبار قصمه الله، ومن ابتغى الهدى في غيره أضله الله، وهو حبل الله المتين، وهو الذكر الحكيم، وهو الصراط المستقيم، هو الذي لا تزيغ

---

(١) رواه الحاكم في المستدرك وصححه، (٢/ ٥٠٧).

به الأهواء، ولا تلتبس به الألسنة، ولا يشبع منه العلماء، ولا يخلق عن كثرة الرد، ولا تنقضي عجائبه، هو الذي لم تنته الجن إذ سمعته حتى قالوا: ﴿ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ۝١ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ﴾ [الجن: ١، ٢]، من قال به صدق، ومن عمل به عدل، ومن دعا إليه هُدي إلى صراط مستقيم »[١].

وكتابٌ هذا حاله، وهذه صفاته، ليس العجب أن يكون أول مقروء، وأكثر مقروء؛ بل العجب كل العجب أن يكون مهجورًا، وأن يُنصرف عنه إلى كتب « ثقافة الكوب الفارغ »، وثقافة « تزجية الفراغ بفراغ لا يقل عنه سوءًا » .

ومن أجْلِ أن يكون كتاب الله تعالى أول مقروء، وأن يكون قارئه على بصيرة من قيمته أحيط قارئ القرآن الكريم عِلمًا بأمور ارتبطت سياقيًّا بمادة قرأ في تعلقها بكتاب الله تعالى، ومن ذلك:

أولًا: آداب القراءة:

ذُكرت في سياق الحديث عن القرآن الكريم ومادة « قرأ » أربعة آداب لا بد من مراعاتها عند قراءته، هي:

أ- الاستعاذة بالله من الشيطان الرجيم: ﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴾ [النحل: ٩٨].

(١) كتاب فضائل القرآن، ابن كثير، (ص ١٧)، قال ابن كثير رحمه الله: « وقصارى هذا الحديث أن يكون من كلام أمير المؤمنين علي ﷺ وقد وهم بعضهم في رفعه، وهو كلام حسن صحيح ».

ب- قراءة القرآن الكريم على الناس: ﴿ وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ [الإسراء: ١٠٦].

جـ - قراءة القرآن الكريم على مكث: ﴿ وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ ﴾ [الإسراء: ١٠٦].

د - قراءة ما تيسر من القرآن الكريم: ﴿ فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ ﴾ [المزمل: ٢٠].

فالاستعاذة متعلقة بلحظة الشروع في القراءة، مما يعني أنه لا بد من الاستعانة بالله تعالى في ذلك، والاستعانة هنا تتخذ شكل استعاذة به من الشيطان الرجيم؛ لأن الاستعانة بالله من أجل أن يجنبنا الشيطان الرجيم تعني إقبالنا على كتاب ربنا، وعدم هجرنا له، وحسن قراءتنا له، وحسن استفادتنا منه، فالموفق من وفقه الله، وليس بعد توفيق الله للعبد توفيق، وتوفيق الله لنا في مسألة قراءة القرآن الكريم كائن في جعلنا نُقبل عليه أيما إقبال، وحيثما كان هذا الإقبال بهذا الشكل كانت الاستفادة وحسن العبادة.

وإنما تكون القراءة على الناس، مما يعني أنَّ من مهمة القارئ أن لا يقرأ لنفسه فقط؛ بل أن يقرأ على الناس، وذلك دال على أن هذا القرآن إنما نزل ليقرأه الناس أولًا، ثم ليقرأه الناس على غيرهم من الناس؛ لأن الهدف أن ينتفعوا بسماعه، ولا يمكن أن ينتفعوا به إذا أخلُّوا بشرط في القراءة هو الـمُكْث.

والـمُكْث متعلق بمنهج القراءة، فالمطلوب منَّا أن نقرأ القرآن الكريم قراءة مخصوصة، فليست كل قراءة مقبولة؛ بل

لا بد أن تكون على مُكث، وكأن المطلوب من القارئ أن يمكث في قراءته لا يفارق القرآن الكريم، أو أن يطيل المكث، فلا يفارقه إلا بنية العودة إليه، ولا يفارقه إلا لأنه مضطر إلى ذلك اضطرارًا، سمة هذا القارئ أنه إذا جلس بين يدي كتاب ربه أحس براحة تدب في سائر جسده، فَكَرِه أن يخلع قميص راحته، وفضَّل أن يُطيل المُكث قارئًا متأملًا، ويكون أمر المكث آكد عندما تكون القراءة على الناس، والمكث مثلما هو فرصة للقارئ لتدبر كلام الله تعالى، هو كذلك فرصة للسامع للسَّماع والتأمل والتدبر... وباختصار: المُكْث منهج.

ولا قدْرَ قارٍ للقارئ ينبغي أن يحققه في قراءته؛ بل المطلوب منه أن يقرأ حسب استطاعته في كل قراءة، ومن ثم عبَّرت الآية الكريمة عن ذلك بـ « ما تيسر »، والعبارة دالة على حجم المقروء، وأنه وفق ما هو متيسر، وسياق الآية فيه من الحِكَم ما يكفي للدلالة على أنَّ جعل الأمر وفق المتيسر فيه من الرأفة بالعباد ما يكفي لمن ألقى السمع وهو شهيد، فالله سبحانه يخبرنا أن سبب ذلك علمه:

- أننا لن نحصيه.
- أنه سيكون منَّا مرضَى.
- أنه سيكون منَّا من يضرب في الأرض يبتغون من فضل الله.
- أنه سيكون منَّا من يقاتل في سبيل الله.

وذلك العلم علة تخفيفه عنَّا، وجعل القدْر الذي ينبغي أن نقرأه

هو ما تيسر، وفي ذلك حِكمة كامنة في منع أي عذر لأحد حتى لا يقرأ القرآن الكريم، فالمطلوب أن نقرأه، وأما كم نقرأ فهذا أمر مرتبط بالمتيسر.

إن ما سبق يفيد أن قراءة القرآن الكريم ليست عشوائية، ولا تشابه قراءة غيره؛ بل هي قراءة مخصوصة، لها آداب، ووفق منهج.

ثانيًا: آداب السماع:

كما أن للقراءة آدابًا لا بد من مراعاتها من لدن القارئ فكذلك للسماع آداب، ومنها حسن الاستماع والإنصات، قال تعالى: ﴿ وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ [الأعراف: ٢٠٤]، وعلة مراعاة آداب السماع طلب الرحمة، وسماعه هو الفيصل بين المؤمن به وغيره، فقد كان ديدن قوم أن يتهربوا من سماع القرآن الكريم، وأن يلغوا فيه، كما قال تعالى مخبرًا عن حالهم: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴾ [فصلت: ٢٦].

وكيف لا ننصت لكتاب ربنا والله ﷻ يطالبنا بالإنصات بعد أن يذكر لنا أن « القرآن بصائر للناس وهدى ورحمة »[١]، كما يفهم من الآية السابقة مباشرة لآية الإنصات: ﴿ هَٰذَا بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [الأعراف: ٢٠٣]؟! ثم كيف لا ننصت والله ﷻ يعرض علينا رحمته؟! وإذا كان

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير الدمشقي، (٢/ ٢٩٦).

الأمر يتعلق بـ« لعل » فإنه أشد دلالة على ضرورة مواصلة الإنصات، والحرص على التأدب بهذا الأدب باستمرار؛ لأننا لا ندري متى تدركنا رحمة ربنا، وما دمنا لا ندري متى ذلك فما علينا إلا أن نجتهد من أجل أن نتأدب مع كتاب ربنا، لعل ربنا يرحمنا، فهو الرحمن الرحيم.

* * *

خلاصة الفصل الأول



نخلص مما سبق إلى نتائج نوجزها فيما يلي:

١- القراءة أولوية الأولويات.

٢- لا علم بدون قراءة، وإنما القراءة طريق العلم.

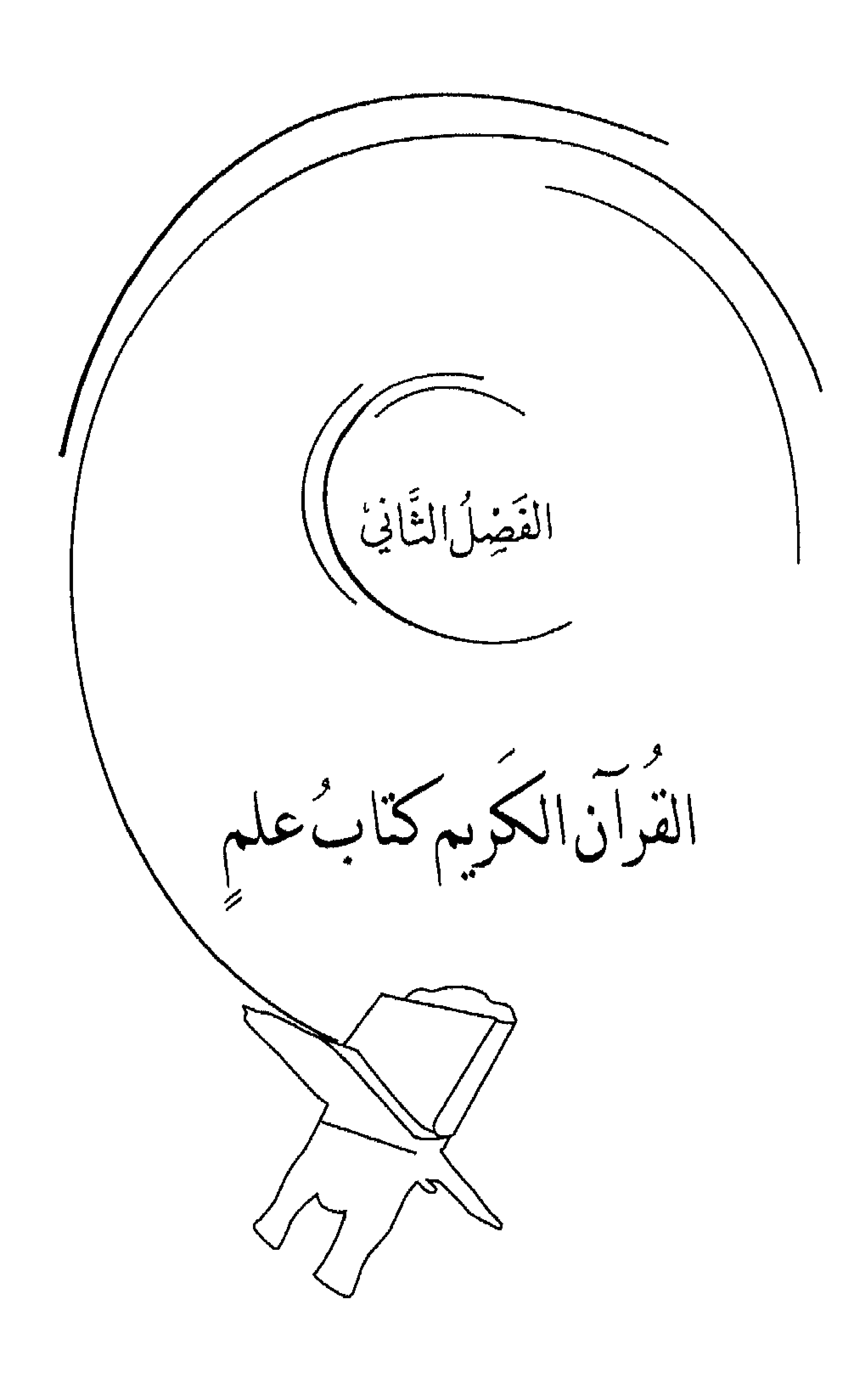
٣- لا بد من العناية بتقييد العلم، أي لا بد من العناية بالكتاب.

٤- لا بد أن يكون علمنا موافقًا للمنهج الذي ارتضاه ربنا لنا.

٥- ينبغي أن تتجه عنايتنا بالعلم وجهتين: وجهة الله تعالى، بأن يكون العلم بالله غايتنا، ووجهة الإنسان، بأن يكون العلم وسيلة معرفته به، ثم وسيلة تعريفه الطريق، أي: أن يكون وسيلة تعريفه بربه وإخراجه من عبادة العباد وعبادة الأصنام - مهما كانت - إلى عبادة رب العباد.

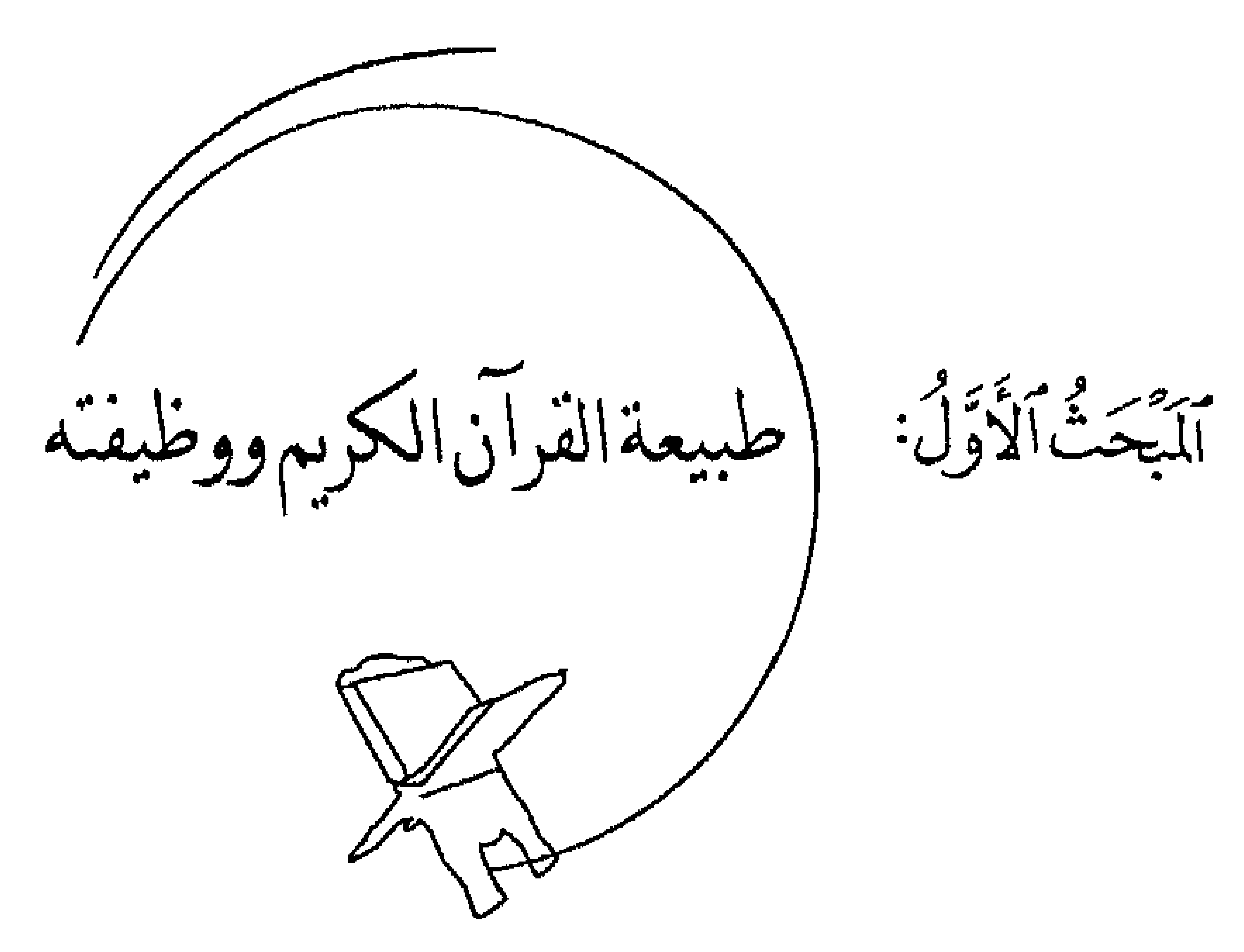
٦- ينبغي أن يكون القرآن الكريم أول مقروء، وأن تعطى له الأولوية في العلم والتعلم.

٧- كل العلم ينبغي أن يتجه في المحصلة وجهة واحدة هي عبادة الله وحده أولًا وأخيرًا.



الفَصْلُ الثَّانِي

القُرآن الكَريم كتابُ علمٍ



المَبْحَثُ الأَوَّلُ: طبيعة القرآن الكريم ووظيفته

تسمية الله تعالى كتابه بـ « القرآن » جعلته ذا علاقة وثيقة بأمور:

- القراءة.
- القِران، من قرنت الشيء بالشيء.
- القرائن؛ لأن الآيات يُصدق بعضها بعضًا.
- القرء، بمعنى الجمع، لكونه جمع السور بعضها إلى بعض..[(١)].

وإذا كان العلماء قد اختلفوا في أصل لفظ « قرآن »، فإنهم لم يختلفوا في أنه « الكلام المعجز المنزل على النبي ﷺ، المكتوب في المصاحف، المنقول عنه بالتواتر، المتعبد بتلاوته »، وهو التعريف المتفق عليه بين الأصوليين والفقهاء وعلماء الشريعة[(٢)].

---

(١) الإتقان في علوم القرآن، جلال الدين السيوطي، (١/ ١٤٦ ، ١٤٧).

(٢) مباحث في علوم القرآن، د. صبحي الصالح، (ص ٢١).

سُمي القرآن الكريم بأسماء عديدة، ذكر الحرالي أنها تبلغ نيفًا وتسعين اسمًا، بينما عدها أبو المعالي خمسة وخمسين[(١)].

إن قيمة هذا التعدد في الأسماء راجعة إلى أن اللّه ﷻ يَسِم كتابه بسمات مختلفة، كل واحدة منها تميزه من جهة ما، ومن أهم أمثلة ذلك أنه سماه هدى؛ لأن « فيه الدلالة على الحق، وهو من باب إطلاق المصدر على الفاعل مبالغة، وأما الفرقان؛ فلأنه فرق بين الحق والباطل، وأما الشفاء؛ فلأنه يشفي من الأمراض القلبية؛ كالكفر والجهل والغل، والبدنية أيضًا، وأما الذكر؛ فلما فيه من المواعظ وأخبار الأمم الماضية... »[(٢)].

إن القيمة الحقيقية لهذا التنوع في الأسماء والصفات والوظائف التي ذكرت للقرآن الكريم تكمن في جعلنا وجهًا لوجه أمام كتاب يختلف عن كل الكتب، هذه الملاحظة هي التي تفتح أعيننا على الحقيقة المعرفية لهذا الكتاب الرباني.

إن وقوفنا على حقيقة كتاب ربنا يجعلنا نعتبره مركز حركتنا المعرفية، عنه نصْدُر وإليه نَرِد، وهذه الحقيقة وقف عليها القدماء بكل أدب، وأعلنوا مرارًا أنهم خدام هذا الكتاب، وأن جهودهم ليست سوى محاولات لجعل الطريق إلى كتاب ربنا سالكة، وبودِّنا أن نقف على أمثلة من ذلك تؤكد ما قلناه وتزيدنا يقينًا أننا عندما غيرنا نظرتنا إلى كتاب ربنا تغيرت

---

(١) البرهان في علوم القرآن، بدر الدين الزركشي، (١ / ٢٧٣)، والإتقان في علوم القرآن، (١/ ١٤٣).

(٢) الإتقان في علوم القرآن، (١/ ١٤٧).

صورة حياتنا المعرفية، وتغير ما حقه المركز فحولناه إلى الهامش، وصار ما حقه الهامش إلى المركز، بل تحول ما لا يستحق حتى هامش الهامش إلى مركز المركز.

وجهود القدامى في اتخاذ القرآن الكريم مركزًا معرفيًّا اتخذت وجهتين:

وجهة من صميم العناية بالقرآن الكريم، وقد أثمرت جهودهم في هذا الاتجاه إقامة علوم تكاد تنفرد بها حضارتنا عن كل حضارات الأرض، منها علم المكي والمدني، وأسباب النزول، والناسخ والمنسوخ، والغريب، والتجويد والقراءة، والوقف والابتداء، والإعراب، والبديع، والإعجاز، والفضائل، والمفردات، والخط والرسم، والتفسير...إلخ.

ووجهة أخرى تمت بصلة إلى القرآن الكريم؛ لكن ليس بالصلة نفسها التي تربط العلوم السابقة به، وإن كان منها ما يشكل آلة لا بد منها لفهمه وفقهه؛ كالنحو والبلاغة...، ومن أجل هذا حرص كثيرون على بيان علة تأليفهم في فن من فنون العلم، وهذه نماذج أكثر تعبيرًا عما قلناه آنفًا.

فهذا ابن قتيبة يقدم لكتابه عن « الشعر والشعراء » وهو كتاب في الأدب بهذه الكلمات الدالة: « هذا كتاب ألفته في الشعراء... وكان أكثر قصدي للمشهورين من الشعراء، الذين يعرفهم جل أهل الأدب، والذين يقع الاحتجاج بأشعارهم في الغريب، وفي النحو، وفي كتاب اللّه ﷻ، وحديث رسول اللّه ﷺ »[1].

---

(١) الشعر والشعراء، ابن قتيبة، (١/ ٥٩).

وهذا أبو منصور الثعالبي يسوق قارئه سوقًا إلى حقيقة لا يمكنه الفكاك منها، مستدرجًا إياه استدراجًا يربط بين كتاب اللّـه وسنة نبيه ﷺ وبين تعلم العربية، فيقول: « فإنَّ من أحبَّ اللّـه تعالى أحب رسوله المصطفى ﷺ، ومن أحب الرسول العربي أحب العرب، ومن أحب العرب أحب اللغة العربية التي نزل بها أفضل الكتب على أفضل العجم والعرب، ومن أحب العربية عُني بها وثبر عليها، وصرف همته إليها، ومن هداه اللّـه للإسلام، وشرح صدره للإيمان، وآتاه حسن سريرة فيه، اعتقد أن محمدًا ﷺ خير الرسل، والإسلام خير الملل، والعرب خير الأمم، والعربية خير اللغات والألسنة، والإقبال على تفهمها من الديانة... »[1].

وهذا عبد القاهر الجرجاني لما همَّ بتأليف كتابه: « دلائل الإعجاز » لاحظ أن طائفة عابت علم النحو وذمت الشِّعر، فانبرى أولًا للدفاع عنهما من جهة أهميتهما في معرفة إعجاز القرآن الكريم، ثم شرع في موضوع كتابه: « أما الشعر فخيل إليها أنه ليس فيه كثير طائل، وأن ليس إلا ملحة أو فكاهة... وأما النحو فظنته ضربًا من التكلف، وبابًا من التعسف، وشيئًا لا يستند إلى أصل... إلى أشباه لهذه الظنون في القبيلين، وآراء لو علموا مغبتها وما تقود إليه لتعوذوا باللّـه منها، ولأنفوا لأنفسهم من الرضى بها، ذاك لأنهم بإيثارهم الجهل بذلك على

(١) فقه اللغة وأسرار العربية، أبو منصور الثعالبي، (ص ١٥).

العلم في معنى الصاد عن سبيل الله، والمبتغي إطفاء نور اللّـه تعالى، وذاك أنا إذا كنا نعلم أن الجهة التي منها قامت الحجة بالقرآن وبانت وبهرت هي أن كان على حد من الفصاحة تقصر عنه قوى البشر، ومنتهيًّا إلى غاية لا يُطمح إليها بالفِكَر، وكان محالًا أن يعرف كونه كذلك إلا من عرف الشعر الذي هو ديوان العرب، وعنوان الأدب، والذي لا شك أنه كان ميدان القوم إذا تجاروا في الفصاحة والبيان، وتنازعوا فيهما قصب الرهان، ثم بحثَ عن العلل التي كان بها التباين في الفضل، وزاد بعض الشعر على بعض، كان الصاد عن ذلك صادًّا عن أن تعرف حجة اللّـه تعالى، وكان مثله مثل من يتصدى للناس فيمنعهم عن أن يحفظوا كتاب اللّـه تعالى ويقوموا به ويتلوه ويُقرئوه، ويصنع في الجملة صنيعًا يؤدي إلى أن يقل حفاظه والقائمون عليه والمقرئون له...»[(١)].

وهذا ابن منظور يقول في بداية مقدمة كتابه « لسان العرب »: « أمَّا بعد، فإن اللّـه سبحانه قد كرم الإنسان، وفضله بالنطق على سائر الحيوان، وشرَّف هذا اللسان العربي بالبيان على كل لسان، وكفاه شرفًا أنه به نزل القرآن، وأنه لغة أهل الجنان، روي عن ابن عباس – رضي اللّـه عنهما – قال: قال رسول اللّـه ﷺ: « **أحبوا العرب لثلاث: لأني عربي، والقرآن عربي، وكلام أهل الجنة عربي** ». ذكره ابن عساكر في ترجمة زهير بن محمد بن يعقوب[(٢)].

---

(١) دلائل الإعجاز، عبد القاهر الجرجاني، (ص ٨، ٩).
(٢) لسان العرب، ابن منظور، (١/ ٧).

إن ما سبق - وغيره كثير مما نصادفه في مقدمات كتب القدامى - يفيد حقيقة مهمة هي أنهم نظروا إلى القرآن الكريم على أنه مركز معرفتهم، وأن معرفتهم ينبغي أن تظل موصولة به، وأن بوصلة اتجاههم في العلم هي مدى قربهم أو بعدهم عنه، وصلة جهودهم به، ويفيد ذلك أن نظرتنا الآن إلى كتاب ربنا أصابها الكثير من التغير، فقد كان من المفروض أن يكون القرآن الكريم مركز اهتمامنا العلمي والمعرفي، وإذا به يُدْفَع نحو الهوامش والعتمات.

وتُجعل في المركز كتب قد تصل حد التناقض معه، فقد ظلت كتب لداروين وفرويد وكارل ماركس و... الكتب المقروءة والمتداولة، وموضوع النقاش، وحلقات العلم، لمدة طويلة... واحتلت تلك الكتب وغيرها كثيرٌ المراكز التي لا يجمعها سوى إبعاد كتاب ربنا عن بني جلدتنا، وجعله في الهامش أحيانًا، وفي هامش الهامش أحيانًا أخرى...

والحقيقة التي صُرفنا عنها صَرفًا وفطن لها قدماؤنا هي أن علومنا ومعارفنا ينبغي أن تكون ضاربة بسهم في كتاب اللّـه تعالى، ذلك أن علومًا لا تخدمنا في قربنا من ربنا ليست تستحق أن نُعْنَى بها، وإنما كانت عناية المسلمين بالعلوم مرتبطة بمقصدية عامة هي تحقيق العبادة بوجه من الوجوه.

وبذلك كان الطب مثلًا تارة يهدف إلى سلامة الأبدان لتقوى على العبادة، وأخرى تخفيفًا عن آلام الآخرين تقربًا إلى اللّـه بمساعدة المحتاج، وكانت العناية بعلم الشِّعر بهدف توفير

مادة لغوية لفهم كتاب اللّـه وسنة رسوله ﷺ، ثم للترويح عن النفوس أحيانًا لتستعيد نشاطها وتجتهد في العمل والعبادة من جديد، وهكذا سائر العلوم، لا نكاد نجد علمًا منها يشذ عن قاعدة الارتباط بالمركز، وبالمقصدية العامة: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات: ٥٦].

إن السؤال الذي يواجهنا بحق هو: لماذا ينبغي أن يكون القرآن الكريم مركزيًّا في بنائنا المعرفي وفي صناعتنا المعرفية؟ والجواب عنه يقودنا حتمًا إلى الوقوف على سر النفخة التي نفخت في القدامى، فلما سَرَت فيهم فاضوا بالعلم النافع الذي شمل الإنسان والحيوان والنبات... وعم المسلم والكافر، والعربي والعجمي...

والإجابة عن ذلك السؤال تقتضي منا أن نبحث في القرآن الكريم نفسه، فما الذي يجعله متميزًا إلى درجة أن ندعو إلى أن يكون مركز اهتمامنا، ومركز صناعتنا المعرفية؛ بل محور حياتنا كلها؟! ذلك ما سنحاول الوقوف عليه بإيجاز من خلال تتبع الآيات التي تتحدث عن القرآن الكريم وصفًا أو وظيفة أو قيمة...[1].

أولًا: الصفات:

وُصف القرآن الكريم بصفات كثيرة؛ منها أنه:

- عظيم: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ﴾ [الحجر: ٨٧].

---

(١) ن.تفصيل الأسماء ومعانيها في الإتقان، (١/ ١٤٣ - ١٤٩).

- حكيم: ﴿ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ ﴾ [يس: ٢].

- مجيد: ﴿ قٓ ۚ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ ﴾ [ق: ١].

- مُيَسر: ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾ [القمر: ١٧].

- كريم: ﴿ إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾ فِى كِتَـٰبٍ مَّكْنُونٍ ﴾ [الواقعة: ٧٧، ٧٨].

- محفوظ: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ ﴾ [الحجر: ٩].

- عربي: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَـٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ [يوسف: ٢].

- سليم: ﴿ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِى عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ [الزمر: ٢٧، ٢٨].

- مفصَّل: ﴿ كِتَـٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَـٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ [فصلت: ٣].

- نور: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَـٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ﴾ [النساء: ١٧٤].

- مُبين: ﴿ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَـٰبٌ مُّبِينٌ ﴾ [المائدة: ١٥].

- مصدق: ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ﴾ [المائدة: ٤٨].

- مهيمن: ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ﴾ [المائدة: ٤٨].

- شامل: ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ تِبْيَـٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ ﴾ [النحل: ٨٩].

- مبارك: ﴿ وَهَـٰذَا كِتَـٰبٌ أَنزَلْنَـٰهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا ﴾ [الأنعام: ٩٢].

- هدى وبشرى: ﴿ قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾[البقرة: ٩٧].

- عزيز: ﴿ وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ﴾ [فصلت: ٤١].

لقد وُصف القرآن الكريم بأنه محفوظ كما مر في قوله تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾[الحجر: ٩]، وهو وصف يجعله يخالف كل الكتب السابقة؛ لأن سمة الحفظ سمة زائدة لم تتوفر في تلك الكتب، وإنما أوكل إلى الأقوام السابقة حفظ كتبهم: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ۚ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا۟ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ عَلَيْهِ شُهَدَآءَ ﴾ [المائدة: ٤٤]، فلما فرطوا فيها كان من اللائق أن يتولى اللّـه ﷻ حفظ القرآن الكريم، ليتناسب مع كونه آخر كتاب في آخر رسالة في الدين الخاتم.

ومعنى هذا أن هذا الكتاب المحفوظ ليس أي كتاب، واللّـه ﷻ يخبرنا بذلك بعبارة لطيفة منذ بداية القرآن الكريم عندما يقول: ﴿ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾[البقرة: ٢]، فاستعمل اسم الإشارة الدال على البعيد لعلو قيمة القرآن الكريم، وبعدها عن أن نلحق ولو جزءًا منها في كتبنا، وهو الكتاب وغيره كتاب، واسم الإشارة والتعريف بـ « ال » يتظافران معًا لرسم صورة هذا الكتاب المتميز عن كل كتاب، وليس كل كتاب يستحق الحفظ، وإنما يُحفظ ما يحمل من المنافع على قدر درجة حفظه، وقد رأينا في صفاته أنه عزيز وحكيم وعظيم... فقيمته الحقيقية وما يحمله للبشرية سبب حفظه، فضلًا عن كونه الكتاب الذي ختم الكتب.

وينسجم مع ما سبق أنه لما كان كتاب اللّـه تعالى الكتاب الوحيد الذي تولى ربنا حفظه، وهو خاتمة الكتب، جاء جامعًا بين أمور:

أ - تصديق الكتب السابقة: ما دامت كلها صادرة عن اللّـه تعالى في أصلها.

ب - الهيمنة على الكتب السابقة: ويفيد هذا أن ما في تلك الكتب من حق سيذكره القرآن الكريم بحيث يغني عنها، ولا سيما أن الأمر يتعلق بتغيير طرأ على تلك الكتب جعلها تخلط بين الحق والباطل لما لحقها من تحريف وتخريف.

جـ- الشمولية: فما دام الإسلام خاتم الرسالات، ومحمد ﷺ خاتم الرسل، والقرآن الكريم خاتم الكتب، وما دامَ الرسالةَ الأخيرةَ للبشرية جمعاء اقتضى ذلك كله أن يكون كتابُ اللّـه تعالى شاملًا لما يتعلق بالحياة، ومراعيًا لعمومية الرسالة، ومن ثم كانت من سمات القرآن الكريم الإحاطة، كما عبر عنها تعالى بقوله: ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ تِبْيَـٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ ﴾ [النحل: ٨٩].

وكون القرآن الكريم مصدقًا ومهيمنًا وشاملًا يعني أننا:

- في غنى عن الكتب السماوية السابقة[١] ؛ لأن ما فيها من حق قد ذكره القرآن مصدقًا إياه، وما فيها من باطل بيّن الكثير منه.

---

(١) وشاهده ما رواه أحمد « عن عبد اللّـه بن ثابت قال: جاء عمر بن الخطاب إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول اللّـه إني مررت بأخ لي من قريظة فكتب لي جوامع من التوراة، ألا أعرضها عليك؟ قال: فتغير وجه رسول اللّـه ﷺ. قال عبد اللّـه: فقلت له: ألا ترى ما بوجه رسول اللّـه ﷺ؟ فقال عمر: رضينا باللّـه ربًّا، وبالإسلام دينًا، وبمحمد ﷺ رسولًا. قال: فسري عن النبي ﷺ،=

- في حاجة ماسة إلى أن نسترشد به في معرفة أحوال معاشنا ومعادنا.

وإذا لم نُعن به لذينك السببين، وهو العظيم العزيز الحكيم الميسر... فأي كتاب يوازيه في العظمة والمزايا يستحق أن نعطيه الأولوية، إن هذا يعني أن القرآن الكريم لِما له من صفات الأهمية والإحاطة ينبغي أن يكون مركز صناعة المعرفة، وأن يكون الإقبال عليه أولوية الأولويات، وهذا ما تؤكده آيات كثيرة تتحدث عن وظيفة القرآن الكريم كما سنرى في الفقرة الموالية.

ثانيًا: الوظائف:

في القرآن الكريم آيات كثيرة تتحدث عن وظائف كتاب الله تعالى، ومنها آيات تتحدث عن صفاته أيضًا، ومن الوظائف التي ذكرها الله تعالى لكتابه العزيز:

- البركة: ﴿ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا ﴾ [الأنعام: ٩٢].

- الهدي للتي هي أقوم: ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ ... ﴾ [الإسراء: ٩].

- البشرى: ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴾ [الإسراء: ٩].

= ثم قال:« والذي نفسي بيده لو أصبح فيكم موسى ثم اتبعتموه وتركتموني لضللتم، إنكم حظي من الأمم، وأنا حظكم من النبيين »، مسند أحمد، (١٢/ ٣٥٠) حديث رقم (١٥٨٠٨)، وصححه محققه.

- الحكم بين الناس: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ ﴾ [النساء: ١٠٥].

- الإنارة: ﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴾ [المائدة: ١٥]، و ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ﴾ [النساء: ١٧٤].

- البيان: ﴿ الٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ وَقُرْءَانٍ مُّبِينٍ ﴾ [الحجر: ١].

- العلم: ﴿ كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ [فصلت: ٣].

- الإنذار: ﴿ قُلْ أَىُّ شَىْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً قُلِ ٱللَّهُ شَهِيدٌۢ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِىَ إِلَىَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ ﴾ [الأنعام: ١٩].

- الرحمة: ﴿ وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ [الأعراف: ٢٠٤].

- الشفاء: ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الإسراء: ٨٢].

- السعادة: ﴿ مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ﴾ [طه: ٢].

- حسم الخلاف: ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَكْثَرَ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ [النمل: ٧٦].

- التذكر: ﴿ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ [الزمر: ٢٧].

- العقل: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ [يوسف: ٢].

- القراءة على الناس: ﴿ وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا ﴾ [الإسراء: ١٠٦].

- التقوى: ﴿ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ [الزمر: ٢٧، ٢٨].

- الموعظة: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [يونس: ٥٧].

فأي كتاب يمكن أن يجمع هذه الوظائف كلها أو جلها؟! وكيف لا يكون هذا الكتاب محور صناعة المعرفة وهو جامع لكل الوظائف، مراع لكل الحاجات، مناسب لكل المقامات، موازنٌ بين حاجات الإنسان في الدنيا وحاجاته في الآخرة؟!

إن تأمل قائمة الوظائف السالفة الذكر من شأنه أن يجعل إقبالنا على القرآن الكريم على بصيرة، ويجعل عنايتنا به ذات أولوية تفوق كل الأولويات الأخرى، وعلة ذلك أنه نور وشفاء وهدى وموعظة ورحمة... فبنوره نتجاوز ظلمات الجهل والانحراف والزيغ، وبهديه نهتدي، وبسعادته نسعد، ومن بركته نستمد البركة...

ثالثًا: ما السبيل؟

إذا كان ذاك وصف القرآن الكريم وتلك وظائفه فما السبيل إلى الاستنارة بنوره والاهتداء بهديه...؟ ذلك ما يبينه لنا الله تعالى في آيات كثيرة نقتبس شيئًا منها في هذه العجالة:

أ- شروط التعامل:

- الاستعاذة: ﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴾ [النحل: ٩٨].

- القراءة: ﴿ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ ﴾ [المزمل: ٢٠].

- السجود: ﴿وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لَا يَسْجُدُونَ ﴾ [الانشقاق: ٢١].

- الاستماع والإنصات: ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠٤].

- عدم هجره: ﴿ وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَٰذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا ﴾ [الفرقان: ٣٠].

- التلاوة: ﴿ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٩١﴾ وَأَنْ أَتْلُوَ الْقُرْآنَ ﴾ [النمل: ٩١ ، ٩٢].

- الترتيل: ﴿ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا ﴾ [المزمل: ٤].

ب- شروط الانتفاع والنفع:

- التدبر: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا ﴾ [النساء: ٨٢].

- الاتباع: ﴿وَهَٰذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ [الأنعام: ١٥٥].

- الادكار: ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾[القمر: ١٧].

- التذكير به: ﴿ فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ﴾ [ق: ٤٥].

- الإنذار: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ ﴾ [الشورى: ٧].

وما سبق يمكن التمييز فيه بين عنصرين، أولهما مقدمة لثانيهما:

- ما يتعلق بآداب التعامل مع كتاب الله تعالى كالطهارة، والاستعاذة، والقراءة، وعدم الهجر.

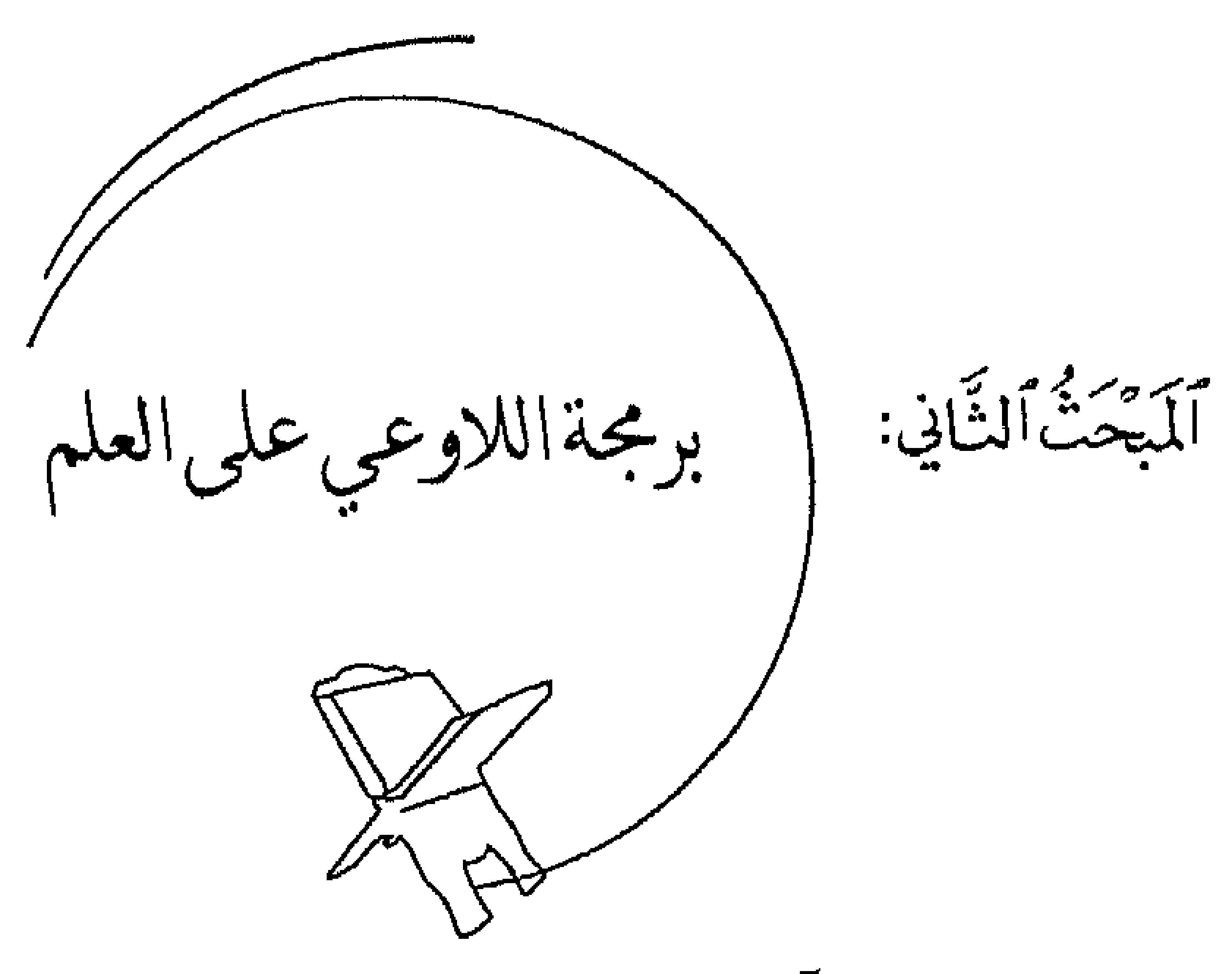
- ما يتعلق بشروط الانتفاع به، ومن ذلك التدبر، والادكار، والتذكير...

إن ذلك يعني أن القرآن الكريم سيظل معطلًا ما لم تتوفر في المتعامل معه أربعة أمور:

- أن يوفر شروط القراءة.
- أن يوفر شروط الانتفاع.
- أن يكون هدفه الانتفاع.
- أن يَنْفَع بعد أن ينتفع.

تلك أربعة كاملة لمن أراد أن يتم نعمة القرآن الكريم عليه، وأما لماذا ذلك كله؟ فلأن القرآن الكريم ليس كأي كتاب، ثمرته معروضة؛ لكن لا بد من حسن التعامل، ولا بد من أن يجمع القارئ بين القراءة والفعل، بأن يحول مقروءه إلى ممارسة، ثم أن ينشر ذلك بين الناس، وهذا من الأمور الواضحة من الآيات التي أوردناها سالفًا.

***



ٱلْمَبْحَثُ ٱلثَّانِي: برمجة اللاوعي على العلم

لا يدفعنا القرآن الكريم إلى طلب العلم فقط من خلال مجموع الآيات التي تتحدث عن صفاته ووظائفه وكيفية التعامل معه والانتفاع به؛ بل يدفعنا إلى أن نكون أهل علم عن طريق برمجة اللاوعي عليه، وذلك من خلال جعل القارئ يتعود على التعامل مع مرادفات العلم والمعرفة، ومن تشكيل القابلية لديه لهما، فمن غير قابلية لدى الإنسان لا يمكن أن يكون صاحب علم أو معرفة، ومن أشكال تكوين تلك القابلية برمجة اللاوعي على ذلك من خلال إمطاره بوابل من المفردات والعلوم والمعارف...التي تجعل ذاته تنسجم معها على مستوى اللاوعي أولًا، ثم على مستوى الوعي ثانيًا.

حتى إذا ما تكونت تلك القابلية واستحكمت صارت تلح على صاحبها أن يشبع نهما إلى العلم لا يتوقف إلا ليبدأ من جديد، في حالة من الإقبال لا تفسرها إلا تلك البرمجة التي أدت دورها في

التربية على العلم، وحولت مستوى العلاقة به من التقبل إلى الرغبة في المشاركة، ثم إلى المشاركة الفعلية، فالتبريز في ذلك.

وبإمكاننا أن نقف على شيء من ذلك من خلال رصد معجم الألفاظ الدالة على العلم والمعرفة في القرآن الكريم وفق جذورها اللغوية، وذلك ما نسوقه في الجدولين التاليين:

أولًا: ما يتعلق بالقراءة[١]:

م	المادة اللغوية	عدد مرات ورودها في القرآن الكريم
١	القرآن	٧٠
٢	قرأ	١٧
٣	تلا	٦٢
٤	رتل	٤
٥	العلم/ العلماء...	٧٩١
٦	درس	٦

(١) ن. المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، على التوالي، (ص ٦٨٥، ٦٨٦ و١٩٧، ١٩٨ و ٣٨١ و٥٩٦ - ٦٠٩ و٣٢٥).

ثانيًا: ما يتعلق بالكتابة وأدواتها[١]:

م	المادة اللغوية	عدد مرات ورودها في القرآن الكريم
٧	كتب/ كتاب...	٢٩٣
٨	القلم	٤
٩	يسطر	٥
١٠	يخط	١
١١	قرطاس	٢
١٢	رق	١
١٣	صحف	٨
١٤	المداد	١
١٥	لوح	٤
١٦	السجل	١
١٧	طي السجل	١
١٨	نشر الصحف	١
١٩	يملل	٣
٢٠	مرقوم	٢
٢١	الرقيم	١

(١) ينظر: م.س، على التوالي، (ص ٧٥٠ - ٧٥٦ و ٧٠١ ، ٧٠٢ و ٤٤٥ و ٢٩٨ و ٦٨٩ و ٤١١ و ٥١١ و ٨٣٧ و ٨٢٩ و ٤٣٨ و ٨٧٣ و ٨٤٩ و ٤١١).

يظهر الجدولان الأول والثاني أن القرآن الكريم يورد مواد لغوية متنوعة تتعلق بالقراءة والكتابة، وقيمة تلك المواد تكمن في أمور نرصدها من خلال هذه الوقفات:

أ- بلغ عدد المواد المتعلقة بالعلم والمعرفة تعلقًا مباشرًا وفق ما جردناه آنفًا (٢١) نوعًا، وبلغ مجموع المادة اللغوية لمجال القراءة (٩٥) بينما بلغ مجموع المادة اللغوية لمجال الكتابة(٣٢٧) مما يعني مجموعًا إجماليًّا للقراءة والكتابة يصل(١٢٧٧) استعمالًا لغويًّا معرفيًّا.

ب- الرصيد الذي حصلنا عليه سابقًا (١٢٧٧ استعمالًا لغويًّا معرفيًّا)، وذلك يعني أن نسبة مهمة من المادة اللغوية للقرآن الكريم مكرسة أساسًا للتربية على المعرفة، ولا سيما « إذا علمنا أن القرآن الكريم كتاب للحياة كلها؛ بل للدنيا والآخرة كذلك، مما يعني أن النسبة جد مرتفعة في كتاب أريد له أن يكون شاملًا لجميع ما يتعلق بحياتنا بنص الآية الكريمة : ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَيْءٍ ﴾ [النحل: ٨٩].

ويفيد ذلك الرقم المهم أن العقل المسلم يتعرض باستمرار للحض على جميع ما يرتبط بالقراءة، وأن هذا الكم من الألفاظ فضلًا عن تلك التي لها علاقة بها ظلت باستمرار تؤدي دورًا فاعلًا في تشكيل لا وعي الإنسان المسلم، وتجعله ذا قابلية عجيبة للإقبال على القراءة والكتابة والعلم.

إن ذلك العدد من مرات الورود المنتمي إلى معجم القراءة

وما له علاقة بها يمتد من أول آية في سورة البقرة (السورة ٢) إلى أول آية من سورة البينة (السورة ٩٨) حيث تبدأ هي الأخرى بذكر أهل الكتاب، ويذكر وسطها الكتاب والصحف، وخلال (٩٧) سورة يبرمج لاوعي القارئ على القراءة ومعانيها لتصير سلسة مقبولة بكل تلقائية »[١].

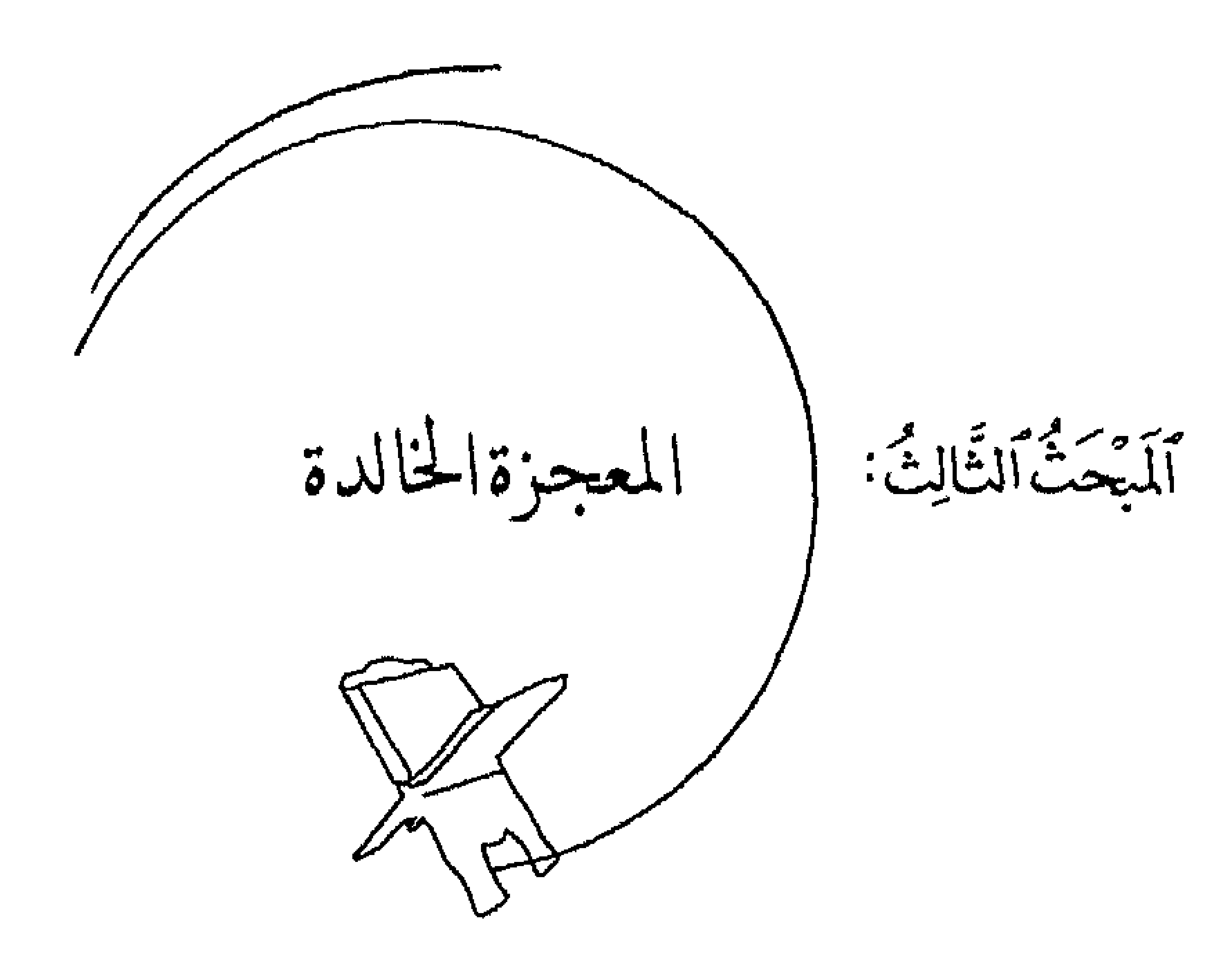
جـ- عندما نقارن بين ما ذكر مما جردناه في الجدولين السابقين وما كان متداولًا في زمن البعثة وقبلها مما يتعلق بمعجم القراءة والكتابة نفاجأ أنه يكاد يكون قد أحاط بالمادة اللغوية المتعلقة بذلك، سواء أتعلق الأمر بمفردات القراءة والعلم أم تعلق بالكتابة وأدواتها، مما يعني أنه قام بعملية استيعاب لتجليات المعرفة ووسائلها وفق ما كان سائدًا، ليضمه إلى سياق قرآني يجعله يتلى باستمرار، وفي الوقت نفسه يُسهم في تشكيل القابلية لردم الفجوة بين القارئ والمعرفة، ولجعل المعرفة جزءًا أساسيًّا من الحياة اليومية للإنسان المسلم[٢].

***

---

(١) القراءة ضرورة حضارية، الحسين زروق، مجلة الوعي الإسلامي، (عدد ٤٨٤)، ذو الحجة (١٤٢٦م)، (ص ٣٣).

(٢) قارن ما قلناه بما قاله عبد الرحمن عمر محمد إسبينداري في فصل « أدوات الكتابة في العهد المكي »، (ص ١١٠ – ١٢٢) من كتابه: كتابة القرآن الكريم في العهد المكي، وما ذكره د.ناصر الدين الأسد في: « مصادر الشعر الجاهلي وقيمتها التاريخية »، الفصل الثاني « موضوعات الكتابة وأدواتها »، (ص ٥٩ – ١٠٣).



المبحث الثالث: المعجزة الخالدة

الوجه الثالث للمهمة التي تولاها القرآن الكريم على المستوى المعرفي دفْع الناس دفعًا - بما حمله من إعجاز - نحو التفكير فيه، أما الذين كفروا فليقفوا على حقيقته، وأما الذين آمنوا فليزدادوا إيمانًا، ومنهم من يفعل ذلك ليس فقط ليزداد إيمانًا؛ بل ليزيد من فرص إقناع غير المؤمنين، وفي الوقت نفسه ليزيد من درجة تعريف المؤمنين بكتاب ربهم وقيمته.

وأهمية الإعجاز القرآني كامنة في كون الله تعالى غيَّر وجهة الإعجاز تغييرًا تامًّا بأن جعل المعجزة في الرسالة الأخيرة علمية معرفية مستمرة، بينما كانت المعجزات السابقة ومعجزات أخرى لمحمد ﷺ مادية متعلقة بزمان البعثة، وهذا ما نبه عليه القاضي أبو بكر الباقلاني في كتابه: « إعجاز القرآن » منذ بدايته بقوله: « فصل في أن نبوة النبي ﷺ معجزتها القرآن، الذي يوجب الاهتمام التام بمعرفة إعجاز القرآن أن نبوة نبينا عليه السلام بنيت على هذه المعجزة، وإن كان قد أُيد بعد ذلك بمعجزات

كثيرة، إلا أن تلك المعجزات قامت في أوقات خاصة، ونُقل بعضها نقلًا متواترًا يقع العلم به وجودًا، وبعضها مما نُقل نقلًا خاصًّا، إلا أنه حُكي بمشهد من الجمع العظيم وأنهم شاهدوه... فأما دلالة القرآن فهي عن معجزة عامة، عمت الثقلين، وبقيت بقاء العصرين، ولزوم الحجة بها في أول وقت ورودها إلى يوم القيامة على حد واحد »[1]، ويعني ما قاله الباقلاني أننا أمام معجزة مستمرة، بخلاف معجزات انقضى زمانها بانقضاء عمر أصحابها.

وأمر آخر هو أن المعجزات السابقة كانت من جنس الحاجة الواقعية، وجنس العلم أو الفن الذي برز فيه القوم، « فقد أيَّد اللَّـه موسى ﷺ - وكان عصره عصر سحر - بفلق البحر وانقلاب العصا حية تسعى، وانبجاس الحجر الصلد بعيون الماء الرَّواء، وأيَّد عيسى ﷺ - وكان عهده عهد طب - بإبراء الأكمه والأبرص، وخلق الطير من الطين، وإحياء الموتى بإذنه »[2]، ولم تخرج معجزة محمد ﷺ الخالدة هي الأخرى عن تلك القاعدة؛ بل جاءت من جنس ما برعت فيه العرب وبرزت، ومن ثم كان القرآن الكريم يتحدى الناس تحديًا بلاغيًّا بيانيًّا كما يظهر من تحديه لهم على المستويات الثلاثة:

- أن يأتوا بمثل القرآن: ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾ [الإسراء: ٨٨].

---

(١) إعجاز القرآن، أبو بكر الباقلاني، (ص ٨).

(٢) م.س، (ص ٥) من مقدمة المحقق: أحمد صقر.

- أن يأتوا بعشر سور مثله: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَـٰتٍ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴾ [هود: ١٣].

- أن يأتوا بمثل سورة واحدة منه: ﴿ وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴾ [البقرة: ٢٣].

بينما كان يحمل في طياته وجوهًا أخرى من الإعجاز لأقوام آخرين تطورت وسائل المعرفة والعلوم لديهم، وجدّت أمور في مجال البحث العلمي ليكتشفوا أن جهودهم التي بذلوها ذكرها القرآن الكريم منذ زمان.

وفي السياق نفسه - أي سياق التحدي - لدفع الناس نحو اكتشاف أوجه الإعجاز والإيمان الحق بأن القرآن الكريم من عند اللّـه تعالى دعا اللّـه ﷻ إلى تدبر القرآن الكريم، أي: إلى إعمال العقل فيه للوقوف على حقيقته، وأرشدهم في الوقت نفسه إلى آلية كانت مألوفة لديهم باعتبارهم قوم بيان وبلاغة وبراعة في الخطاب وهي آلية التفاوت في الكلام: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَـٰفًا كَثِيرًا ﴾ [النساء: ٨٢]، ومعنى هذا أن الاختلاف سمة الخطاب البشري، بينما كلام الله تعالى منزه عن الاختلاف والتفاوت.

إن السؤال الأهم هنا هو: ما علاقة التحدي للناس أن يأتوا بمثل القرآن الكريم، أو بمثل عشر سور منه، أو بمثل سورة بصناعة المعرفة وإقامة أمة العلم؟ والجواب في السؤال

نفسه، وفي التحدي ذاته، فإذا كان القرآن الكريم يتحدى فمعنى هذا أن فيه ما يجعله مخالفًا لكلام البشر، ومن ثم كان لا بد من البحث عن موضع المزية فيه:

أولًا: أهو موضع واحد أم أكثر؟

وثانيًا: ما سر ذلك التميز؟

وكان هذا حافزًا نحو اشتغال معرفي أخذ يتعمق حينًا بعد حين حتى أثمر علمًا قائمًا بذاته هو علم إعجاز القرآن، وما زال بإمكاننا الآن أن نعرف حجم التحفيز الذي قدمه القرآن الكريم في البحث في هذا الاتجاه، وفي تحريك المعرفة في هذه الوجهة، ويمكن فعل ذلك من خلال تتبع وراقية كتب الإعجاز القرآني منذ نزول القرآن الكريم إلى الآن، وهي وراقية غنية ولا شك.

يكفي أن نعرف أن هذا العلم له الآن هيئة عالمية تُعنى به[1]، ولها مجلة تُعنى فقط بهذا العلم وأخباره[2]، مما يعني أننا أمام تحد كان قوة الدفع نحو البحث عن أسرار التميز القرآني، وعن البراهين الدالة على أن كتاب الله تعالى ليس كأي كتاب، وأنه مخالف لكل الكتب بما فيها الكتب السماوية السابقة في كونه معجزًا.

يكفينا أن نشير إلى أن من وجوه إعجاز القرآن الكريم أنه ظل محفوظًا من رب العالمين منزهًا عن الزيادة والنقصان طيلة هذه القرون التي مضت، مصداقًا لقوله تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾[الحجر: ٩]، ولذلك نعرف كيف وصلنا

---

(١) هي الهيئة العالمية لإعجاز القرآن. (٢) هي مجلة « الإعجاز العلمي ».

القرآن الكريم، والرجال الذين أوصلوه، ودرجة عدالتهم...، ومنا الآن من يحتفظ إلى يومنا هذا بسند/ أسانيد أخذه القرآن الكريم إلى رسول الله ﷺ دون انقطاع أو خلل في السند، في حين أننا نلاحظ بخصوص العهدين: القديم والجديد[١]:

- عدم وجود سند لأسفارهما.
- جهالة الكتاب الحقيقيين لتلك الأسفار.
- اضطراب متنها واختلاف وتناقض بين العديد من جوانب نسخها.

ولتلك الأسباب وغيرها بلغ التحريف أوجه، وكثرت الأخطاء إلى درجة أن مجلة « استيقظوا » أحصت منها خمسين ألف خطأ[٢].

وعندما قال الله تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ [الحجر: ٩]، أفادنا أننا بصدد كتاب مختلف ومتميز عن الكتب السابقة حتى على مستوى وصوله إلينا.

وعندما فهم القدماء أن التحدي الإلهي هو توجيه ضمني للبحث المعرفي عن سر الإعجاز القرآني شرعوا في بذل الجهود في هذا الاتجاه، وحاولوا إحصاء وجوه الإعجاز، فإذا ما وصل الأمر إلى العلَّامة جلال الدين السيوطي خصه بموسوعة قيمة بعنوان: « معترك الأقران في إعجاز القرآن » ذكر فيها خمسة

---

(١) الكتب المقدسة في ميزان التوثيق، عبد الوهاب عبد السلام طويلة، (ص ٩١ – ٩٨).
(٢) هل الكتاب المقدس كلام الله؟ أحمد ديدات، المكتبة السلفية، (ص ٢٢).

وثلاثين وجهًا لإعجاز القرآن بالتفصيل والشواهد، وذكر أن بعضهم حصر أوجه الإعجاز في ثمانين وجهًا، معلقًا على ذلك بقول لا يخلو من دلالة: « والصواب أنه لا نهاية لوجوه إعجازه »[(١)].

وقد فعل خيرًا بكلامه هذا، وأظن أنه إنما قال ما قاله؛ لأنه أحس بعجزه عن الإحاطة بوجوه الإعجاز، وتلك مزية من مزايا الإعجاز القرآني: أن يطيل الباحث البحثَ ثم يُحس بأن بينه وبين الإحاطة بونًا شاسعًا، وأن ما عليه إلا أن يسجل ما وسعه جهده ثم يعلن تواضعه أمام عظمة كتاب الله تعالى، تاركًا الطريق مفتوحًا أمام الآخرين ليكتشفوا وجوهًا أخرى، وليعلنوا هم بدورهم عجزهم وانبهارهم في الوقت نفسه بكتاب كلما تعمقوا فيه اكتشفوا أنهم لم يتجاوزوا عتبته بعد.

إن ما سبق يفيد أن القرآن الكريم عندما أعلن تحديه كان يهدف أولًا إلى جعلنا نقف على حقيقة أنه من عند الله، ثم إلى تحفيزنا على البحث في سر الامتناع عن أن نستطيع الإتيان بمثله، ثم عن سر التميز الذي جعله مخالفًا لكل كلام.

* * *

(١) معترك الأقران في إعجاز القرآن، جلال الدين السيوطي، (١/ ٣).



خلاصة الفصل الثاني

المباحث الثلاثة السابقة تتظافر جميعها لتؤكد أن القرآن الكريم ليس أي كتاب، وأنه لتميزه من حيث أسمائه وصفاته ووظائفه بسبب كونه كلام رب العالمين اقتضى أن يكون مركز اهتماماتنا المعرفية، عنه نصدر وإليه نَرِد، وبقدر ما نوفر من شروط الانتفاع يكون صدورنا وورودنا نافعًا، وهذا ما عبر عنه أستاذي الدكتور الشاهد البوشيخي بعبارة لطيفة في رسالة موجزة معبرة « القرآن الكريم روح الأمة الإسلامية ».

قال: « الروح سر من الأسرار الإلهية، حين نُفخت في آدم مَرة ظهرت جميع خصائص الحياة، وحين تُنفخ في ابن آدم بعد ذلك يصير بها خلقًا آخر، وحين تفارق جسمه يصير جثة هامدة كبقية مواد الأرض... والقرآن الكريم روح كتلك الروح، قال تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ﴾ [الشورى: ٥٢]، الروح ها هنا هو كتاب اللّـه ﷻ، هو التعبير عن سر الوحي بأنه يحدث في الإنسان من الخصائص ما يحدثه الروح حين ينفخ في الإنسان...

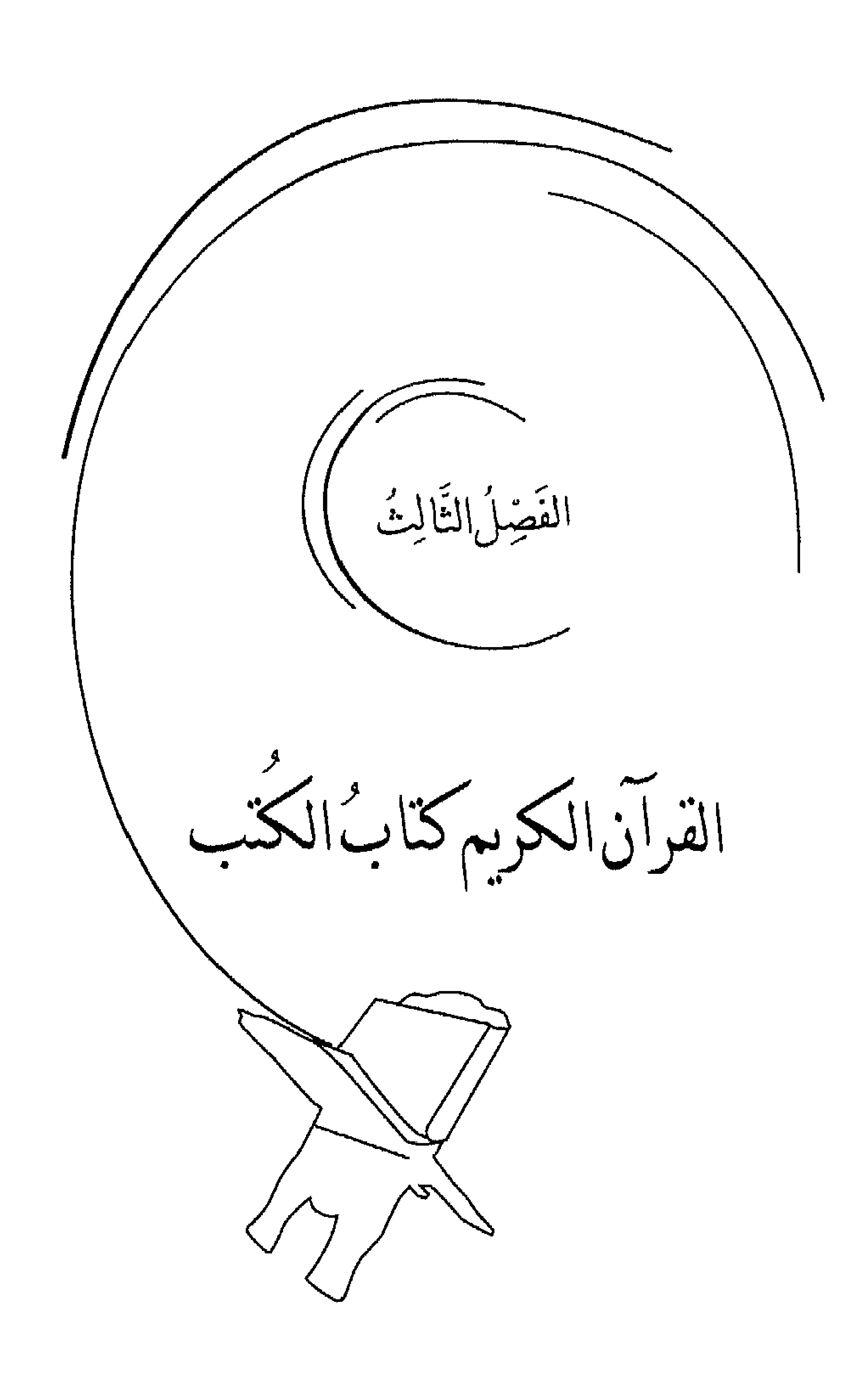
إن الإنسان - الفرد والمجتمع معًا - يصير بالقرآن خلقًا آخر، لكون هذا القرآن ذا طبيعة تشبه طبيعة الروح تمامًا، ولذلك كان التعبير فيه كالتعبير في الروح؛ ففي الروح قال اللّه ﷻ: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [الإسراء: ٨٥]، وها هنا قال: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ﴾ [الشورى: ٥٢]، نفس اللفظ تقريبًا، وهذه الأمة لها جسد وروح؛ الجسد هو هذا الذي نراه مبعثرًا في وسط الكرة الأرضية، لكن روحه ليست حالَّة فيه الآن، هي منفصلة عنه، ولذلك لا توجد فيه الآن خصائص الحياة التي توجد في الجسم الحي الذي له الروح وبه الروح... »[1].

إن مهمتنا إذًا الآن هي أن نعيد الروح إلى هذا الجسد الذي أنهكه الموت المعنوي، ويقولون كيف هو؟ قل أن نعيد القرآن الكريم إلى المركز، ثم أن نوفر في التعامل معه شروط القراءة وشروط الانتفاع[2].

***

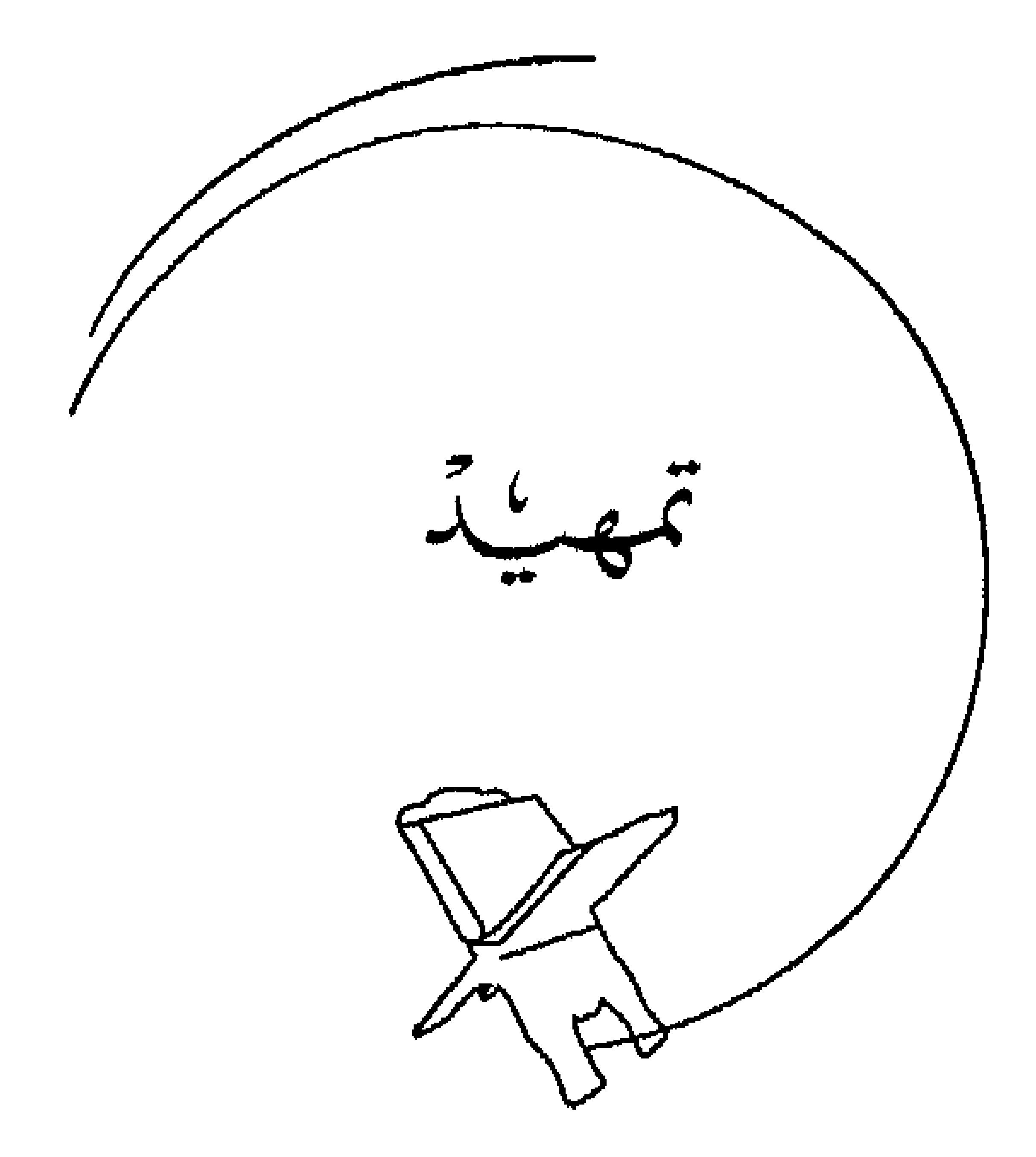
(١) القرآن الكريم روح الأمة الإسلامية، د.الشاهد البوشيخي، (ص ١٧ ، ١٨).

(٢) للدكتور الشاهد البوشيخي رسالة حصر فيها شروط الانتفاع في أربعة، هي: قراءة القرآن - فهم القرآن - الإيمان بالقرآن- الاتباع للقرآن. ن. شروط الانتفاع بالقرآن الكريم، د.الشاهد البوشيخي،(ص ١٧ - ٤٣).



الفَصِلُ الثَّالِثُ

القرآن الكريم كتابُ الكُتب



تمهيد

ذكر الراغب الأصفهاني عبارة دالة تلخص ما نحن بصدد الحديث عنه أيما تلخيص، قال: « قال بعض العلماء: تسمية هذا الكتاب قرآنًا من بين كتب اللّه لكونه جامعًا لثمرة كتبه »، وأضاف مستدركًا: « بل لجمعه ثمرة جميع العلوم، كما أشار تعالى إليه بقوله: ﴿ وَتَفۡصِيلَ كُلِّ شَيۡءٖ ﴾ [يوسف: ١١١]، وقوله: ﴿ تِبۡيَٰنٗا لِّكُلِّ شَيۡءٖ ﴾ [النحل: ٨٩] »[١]، وكلام الراغب وكلام العلماء الذين نقل عنهم يقدم لنا ملاحظة قيمة عن علاقة القرآن الكريم بغيره تتعلق بكوننا أمام كتاب جامع لباقي الكتب والعلوم.

مما يعني أننا أمام كتاب الكتب، وعلم العلوم، وهذه الملاحظة ستظهر بعد قرون على يد بديع الزمان سعيد النورسي في عبارة أكثر إشراقًا، قال: « وهو الكتاب الوحيد المقدس الجامع لكل الكتب التي تحقق جميع حاجات الإنسان المعنوية، حتى إنه قد أبرز لمشرب كل واحد من أهل المشارب المختلفة، ولمسلك

---

(١) مفردات ألفاظ القرآن، الراغب الأصفهاني، (ص ٦٦٩).

كل واحد من أهل المسالك المتباينة من الأولياء والصديقين، ومن العرفاء والمحققين، رسالة لائقة لمذاق ذلك المشرب وتنويره، ولمساق ذلك المسلك وتصويره. فهذا الكتاب السماوي أشبه ما يكون بمكتبة مقدسة مشحونة بالكتب »[١].

ثم يقول في موضع آخر بعد ذلك:« القرآن الكريم مائدة سماوية تجد فيها آلاف من مختلف طبقات الأفكار والعقول والقلوب والأرواح غذاءهم، كل حسب ما يشتهيه ويلبي رغباته، حتى إن كثيرًا من أبواب القرآن ظلت مغلقة لتفتح في المستقبل من الزمان »[٢]، وما أحسن كلام رسول الله ﷺ عندما عبر عن هذا القرآن الكريم بقوله: « **إن هذا القرآن مأدبة الله، فاقبلوا من مأدبته ما استطعتم، إن هذا القرآن حبل الله والنور المبين، والشفاء النافع، عصمة لمن تمسك به، ونجاة لمن تبعه، لا يزيغ فيستعتب، ولا يعوج فيقوم، ولا تنقضي عجائبه...** »[٣].

نعم إنها مأدبة تجمع ما لذ وطاب، وتراعي حاجات النفوس، وتثير شهية العقل والقلب أعظم ما تكون الإثارة، فإذا بالجالس بين يديها يجيل النظر فيزداد رغبة في الإقبال عليها، وإذا بالمقبل لا يقدر أن يفارقها، كلما ظن أنه قد اكتفى انبعثت رغبة داخلية تخبره أن الحاجة ماسة إلى المزيد، وتسأله راجية: « هل من مزيد؟ ».

---

(١) المعجزات القرآنية، بديع الزمان سعيد النورسي، (ص ٩).

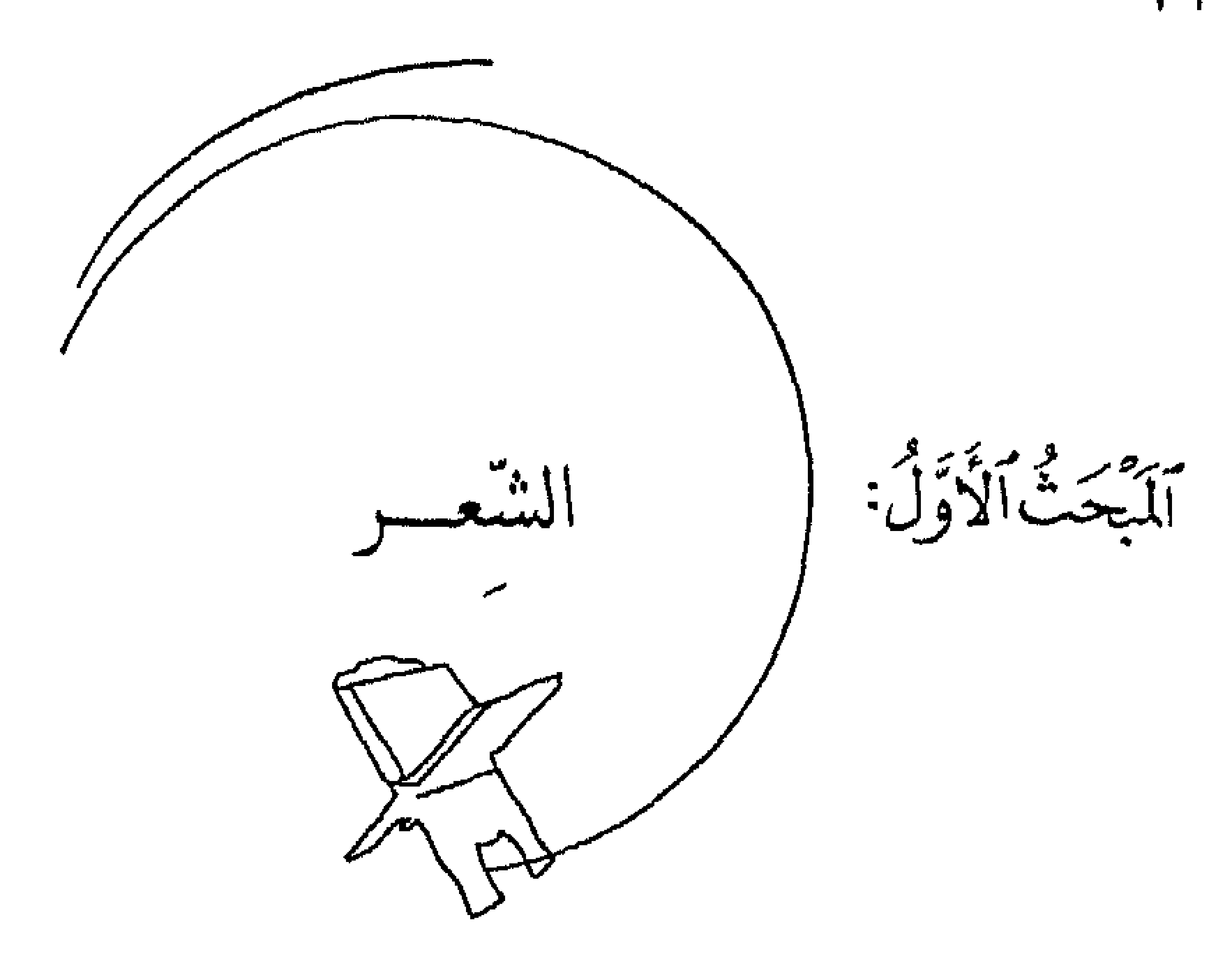
(٢) م.س، (ص ٤٩).

(٣) رواه الحاكم في المستدرك وصححه، ينظر: الحديث رقم (٢٠٤٠)، (١/ ٧٤١).

فيزداد إقبالًا، ويزيده القرب قربًا، ولا تزيد المأدبة إلا لذة ومتعة، وهكذا في إقبال ومتعة حتى تصرفه الصوارف، فإما عودة بعدُ وإما فتنة، ولكن النفس تظل تلح باستمرار على معاودة الإقبال على مأدبة الله، فنعم المأدبة هي، ونعم الجلوس القوم الذين جمعتهم، ونعم الجلسة، ونعم الذكرى هي، فلمَ لا يُقبل مرة أخرى وقد ذاق، وليس من رأى وذاق كمن سمع؟!

والحاصل مما تقدم أننا أمام كتاب جامع لكتب ومعارف وعلوم، وأنه بهذا الجمع لم يغن فقط عنها؛ بل قام بغربلتها وبيان الصحيح من السقيم فيها، ونبه على ما فيها من خير، ثم وجهنا إليها مؤطَّرين بتصور غير الذي كنا سنحمله لو لم نمر بالقرآن الكريم ونرتع منه، وبإمكاننا الوقوف على شيء من ذلك من خلال تتبع مجالات المعرفة التي كانت سائدة زمن البعثة ثم نصيبها في القرآن الكريم ونظرته إليها، وهي مجالات متعددة لكن في مقدمتها ثلاثة هي حسب حضورها وقيمتها عند العرب: الشعر والقصة وكتاب أهل الكتاب.

***



ينسب إلى عمر بن الخطاب ﷺ أنه قال: « كان الشعر علم قوم لم يكن لهم علم أصح منه »[١] ، ولذلك كان الشعر ديوان علم العرب، « ومنتهى حكمهم، به يأخذون، وإليه يصيرون »[٢]، وقد رُوي عن أبي عمرو بن العلاء أنه قال: « ما انتهى إليكم مما قالت العرب إلا أقله، ولو جاءكم وافرًا لجاءكم علم وشعر كثير»[٣]، ومن ثم جاء شعرهم وثيقة حياتهم، فالشعر كان العلم الأول والأهم عند القوم.

وإلى يومنا هذا لا يمكننا أن نفهم تفاصيل الحياة الاجتماعية والثقافية...إلخ؛ لذلك العصر إذا استغنينا عن الشعر، فالشعر وفق ذلك مدونة العرب التي سجلوا فيها ما يتعلق بحياتهم سلمًا وحربًا...وبذلك نفهم معنى القول بأن الشعر « ديوان العرب »، وإذا كان الشعر كذلك عند القوم، هذه صورته وتلك

---

(١) طبقات فحول الشعراء، محمد بن سلام الجمحي، (ص ٢٤).

(٢) م.س، (ص ٢٤).　　(٣) م.س، (ص ٢٥).

قيمته فُهم لِـمَ خَصه القرآن الكريم بستة نصوص تتفاوت طولًا وقصرًا، وتختلف في دلالاتها اختلاف القصد من نزولها، واختلاف المرحلة التي تنزلت فيها، ونصوص الشعر والشعراء في القرآن الكريم هي وفق ترتيبها:

١ - ﴿ بَلْ قَالُوٓاْ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍۭ بَلِ ٱفْتَرَىٰهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ ﴾ [الأنبياء: ٥].

٢ - ﴿ وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ﴿٢٢٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَذَكَرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱنتَصَرُواْ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُواْ ۗ وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴾ [الشعراء: ٢٢٤ - ٢٢٧].

٣ - ﴿ وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ ﴾ [يس: ٦٩].

٤ - ﴿ وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓاْ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍۭ ﴾ [الصافات: ٣٦].

٥ - ﴿ أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ ﴾ [الطور: ٣٠].

٦ - ﴿ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ﴾ [الحاقة: ٤١].

- ومن خلال نظرة أولى يظهر أننا أمام نصوص تتعلق بالشعراء (النصوص: ١، ٢، ٤، ٥، ٦)، ونص يتعلق بالشعر (النص: ٣)، وإذا أضفنا إلى ما سبق أن النص الثاني وحده المدني، وأن باقي النصوص كلها مكية عَلِمنا أن الأمر يتعلق بسياق تاريخي ذي صلة وثيقة بالمرحلة التي نزلت فيها هذه النصوص.

أما النصوص المكية فتتضمن:

- حكيًا لتهمة اتَّهم بها كفارُ قريش محمدًا ﷺ: (النصوص: ١، ٣، ٤، ٥).

- تنزيهًا للرسول ﷺ عن أن يكون شاعرًا: (النص: ٦).

وذلك يعني أن الإشارة إلى الشعر والشعراء في السور المكية وردت في سياق التدافع العقدي بين الإسلام والكفر، وأن علة إيرادها هي نفي أن يكون الرسول ﷺ شاعرًا، وأن يكون القرآن الكريم شعرًا، فالمسألة إذًا تتعلق بسياق تاريخي اقتضى ذلك النوع من التناول بعيدًا عن أي موقف من الشعر، لا سلبًا ولا إيجابًا، فكل ما في الأمر أن الله ﷻ يَفْصل بين الرسالة والشعر.

ويصحح خطأ متعمدًا لقوم يوظفون مغالطة معرفية في إطار حرب إعلامية رهيبة، وإلا كيف نفهم أننا أمام قوم يعتبر الشعر علمهم الأول والأهم ثم يخطئون في القول بأن القرآن الكريم شعر، وأن محمدًا ﷺ شاعر؟! هذا وثقافتهم أصلًا قائمة في المقام الأول على الشعر، ومحمد ﷺ تربى بينهم زمانًا.

فالأمر داخل في إطار الحرب الإعلامية بهدف تجريد محمد ﷺ من النبوة، إذ لو أثبتوا لعوام المتلقين - ولو إعلاميًّا - أنه شاعر، وأن ما جاء به شعر، فإنهم بذلك يجردونه من القدرة على التأثير والدعوة إلى الإسلام، فهدفهم الأسمى الصد عن الدين الجديد بدعوى أنه ليس سوى ما أَلِفَه الناس، وأنه لم يأت بجديد، وأنه ينبغي أن يُتعامل معه كما يُتعامل مع الشعر والشعراء وكفى، تلك هي الصورة التي أرادوا رسمها للقرآن الكريم ولمحمد ﷺ، وتلك هي الصورة نفسها التي بين القرآن الكريم تهافتها مرة ببيان حقيقة محمد ﷺ، وأخرى ببيان حقيقة القرآن الكريم.

وأما النص المدني: فمختلِف تمامًا عن تلك النصوص بمثل اختلاف نزوله الزمني عن نزولها، فهو أولًا يتحدث عن الشعراء بصيغة الجمع، وهذا لم يكن ممكنًا قبل الهجرة، وحتى مكة لم يكن أهلها من ذوي الباع في مجال الشعر حتى يستحقوا أن يطلق عليهم لفظ الشعراء، وشاهدنا في هذا إضافة إلى اللفظ القرآني بصيغة الجمع « والشعراء » شهادة لابن سلام الجمحي لاحظ فيها أن شعر قريش قليل، وأن سبب ذلك ما كانت تنعم به من حياة آمنة بعيدة عن الحروب: « والذي قلل شعر قريش أنه لم يكن بينهم نائرة[1] ، ولم يحاربوا »[2]، وليس خافيًا أن قلة الشعر دالة على قلة الشعراء كمًّا وكيفًا.

وهناك ميزة أخرى لهذا النص - أي النص الثاني المدني - عن غيره من النصوص هي أنه نزل مباشرة بعد معركة بدر، فبعد هزيمة قريش في هذه المعركة تحركت آلة الشعر تبكي القتلى وتهجو المسلمين وتتوعدهم، انطلق هذا الشعر قويًّا بقوة الفاجعة نفسها، وكان لا بد - ولأول مرة في تاريخ الإسلام - أن يَدْخل الشعر في التدافع بين الحق والباطل.

وقد سجلت لنا كتب الحديث هذه اللحظة بالذات، فعن عمار بن ياسر أنه قال: لما هجانا المشركون شكونا ذلك إلى رسول الله ﷺ، فقال: « قولوا لهم كما يقولون لكم » قال: فلقد رأيتنا نعلمه إماء أهل المدينة [3] ، فالمسألة مسألة حاجة إلى رد

(١) النائرة: الحقد والعداوة. (٢) طبقات فحول الشعراء، (١/ ٢٥٩).

(٣) المسند، أحمد بن حنبل، حديث رقم(١٨٢٣٠)، (١٤/ ١٣٤).

العدوان الشعري، ومن ثم كان لا بد من توسيع قاعدة المشاركين في الرد، فشملت حتى إماء أهل المدينة.

- وروى البخاري أن النبي ﷺ قال لحسان بن ثابت: « **يا حسان! أجب عن رسول الله ﷺ، اللهم أيده بروح القدس!** »[1]، ومرة أخرى نجد أنفسنا أمام حاجة إلى الرد، فقول الرسول ﷺ « أجب عني » دال على أنه قد استُهدِف بالهجاء، وأن الرد ضروري، بدليل استعماله ﷺ صيغة الأمر، ودعائه لحسان بالتأييد.

وعن عائشة - رضي الله عنها - أن رسول الله ﷺ قال: « **اهجوا قريشًا فإنه أشد عليها من رشق بالنبل** »، فأرسل إلى ابن رواحة؛ فقال: « **اهجهم** »؛ فهجاهم فلم يرض، فأرسل إلى كعب بن مالك، ثم أرسل إلى حسان بن ثابت، فلما دخل عليه، قال حسان: قد آن لكم أن ترسلوا إلى هذا الأسد الضارب بذَنَبه، ثم أدلع لسانه فجعل يحركه، فقال: والذي بعثك بالحق! لأفْرِينهم بلساني فري الأديم، فقال رسول الله ﷺ: « **لا تعجل، فإن أبا بكر أعلم قريش بأنسابها، وإن لي فيهم نسبًا، حتى يُلَخِّص لك نسبي** »، فأتاه حسان، ثم رجع فقال: يا رسول الله! قد لَخَّص لي نسبك، والذي بعثك بالحق! لأسلنك منهم كما تسل الشعرة من العجين، قالت عائشة: فسمعت رسول الله ﷺ يقول لحسان:

---

(١) صحيح البخاري، حديث رقم(٤٥٣)، كتاب الصلاة، باب الشعر في المسجد، (١/ ١٢٢).

« إن روح القدس لا يزال يؤيدك، ما نافحت عن الله ورسوله » وقالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: « هجاهم حسان فشفى واشتفى »[١].

وقول الرسول ﷺ: « اهجوا قريشًا » مؤطر بالإطار الذي تحدثنا عنه آنفًا، أي: هجاء المشركين الرسولَ ﷺ والإسلام والمسلمين، ودليله في نص الحديث قوله ﷺ: « إن روح القدس لا يزال يؤيدك، ما نافحت عن الله ورسوله »، والمنافحة دفاع، مما يعني أننا أمام رد لعدوان باستعمال السلاح نفسه الذي استعمله الآخر.

وفي الحديث السالف الذكر إشارة قيمة غير ما سبق هي استثمار علم النسب، فقد طلب ﷺ من حسان أن يستعين بأبي بكر باعتباره رجلًا نسّابة ليكون على علم وبصيرة بالأصول الاجتماعية، وليتجنب هجاء نسب الرسول ﷺ من حيث لا يدري، فالمسألة بذلك هي مسألة استثمار العلوم والمعارف السائدة وفق منهج وأهداف يتناسبان مع الدعوة الإسلامية والظرفية التي تمر بها.

ويضعنا ما سبق وجهًا لوجه أمام مشكلة حقيقية هي أن العدو لجأ إلى استخدام سلاح معرفي لأول مرة، وهذا السلاح أمضى من تلك الأسلحة التي ألحق بها المسلمون الهزيمة بمشركي قريش، مما

---

(١) صحيح مسلم بشرح الإمام النووي، حديث رقم(٢٤٩٠)، كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل حسان بن ثابت ﷺ، (١٦/ ٤١ ، ٤٢).

يعني أن المسلمين إن لم يتداركوا الموقف فإن عليهم أن ينتظروا هزيمة ثقافية معرفية منكرة، فالشعر سريع الانتشار والذيوع، وقد انطلق قويًّا مفجوعًا كما قلنا، ومن أهم وظائفه تشويه صورة المسلمين، والتأليب عليهم، واستمالة أقوام آخرين إلى صف قريش للتضامن معهم في محنتهم، ومآزرتهم.

ولذلك كان لا بد من التدخل السريع، وتوظيف السلاح نفسه، ولكن السلاح هذه المرة ليس يجيده كل واحد، والذين يجيدونه من المسلمين قلة، فكان لا بد من البحث عن شاعر بمعنى الكلمة يذب عن المسلمين، ويشفي صدورهم، وكانت بالمجتمع المدني - ولا سيما من الأنصار - نخبة من الشعراء منهم: عبد الله بن رواحة، وكعب بن مالك، وحسان بن ثابت، واستعرض الرسول ﷺ كفاءة كل واحد منهم، ثم استقر رأيه على حسان بن ثابت.

ومنذ تلك اللحظة تولى حسان منصب شاعر رسول الله ﷺ، وخصه ﷺ بمزية أخرى لما بنى له منبرًا بمسجده ليهجو عليه أعداء الإسلام والمسلمين، فقد روى أبو داود « عن عائشة - رضي الله عنها - قالت: كان رسول الله ﷺ يضع لحسان منبرًا في المسجد، فيقوم عليه يهجو من قال في رسول الله ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: « إن روح القدس مع حسان ما نافَح عن رسول الله ﷺ »[1].

---

(١) سنن أبي داود، حديث رقم(٥٠١٥)، كتاب الأدب، باب ما جاء في الشعر، (٤/ ٣٠٤).

وينبغي أن لا يفوتنا هنا أن الأمر يتعلق بتبنٍّ رسمي للقيادة الإسلامية لحسان وشعره، وأن جعل ذلك في المسجد له دلالاته، ومنها أننا أمام مهمة تعبدية جليلة، وأمام وسيلة عظيمة القَدْر، ولذلك ورد في الحديث أنه كان يضع لحسان منبرًا في المسجد، بمعنى أن الأمر لم يتعلق بحالة واحدة، بل بعادة وتكرار، فالأمر يتعلق بتوظيف وسيلة جهادية في مكان للعبادة بتشجيع من القيادة العليا، فأي شرف يعادل شرف هذا العلم وهذا الشاعر في هذا المكان؟! وأي استثمار يفوق هذا الاستثمار؟!

إن الدرس الذي تقدمه لنا الأحداث السالفة الذكر هو أن الشعر لما كان ميدانًا معرفيًّا أُقحم في ساحة المعركة في زمن عجزت فيه الآلة الحربية أمام عزيمة من حديد اتسم بها المسلمون - وهم قلة - في معركة هي أولى معاركهم اقتضى أن يكون رد فعل المسلمين معرفيًّا أيضًا، ومن ثم وجدوا في الشعر الوسيلة المثلى للرد بالمثل.

فكانت العناية بهذا المجال المعرفي في سياق التدافع، ومن ثم جاءت آيات سورة الشعراء حاملة لهذه السمة: ﴿وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ﴿٢٢٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱنتَصَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا۟ ۗ وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾ [الشعراء: ٢٢٤ - ٢٢٧]، فمن سمات هؤلاء أنهم من الآن فصاعدًا ينتصرون، فقد مضى زمن الاكتفاء بكف الأيدي وإقامة الصلاة... والفرق شاسع بين مرحلة الدعوة ومرحلة الدولة.

غير أن القرآن الكريم لم يتعامل مع الشعر باعتباره سلاحًا يستخدم في المعارك فقط؛ بل وسع من نطاق نظرته إليه لتشمل زمن الحرب والسلم، ومن ثم أخرجه من حيز رد الفعل إلى حيز ضبطه بالتصور العام للإسلام في نظرته إلى الكون والحياة والناس، وتلك سمة أخرى من سمات نص سورة الشعراء التي تميزه عن باقي النصوص، مثلما تتميز السور المكية عن المدنية، وهذا تفصيل ذلك:

ميز نص سورة الشعراء بين طبقتين كبيرتين من الشعراء: طبقة الشعراء الغاوين، وطبقة الشعراء الراشدين.

أما الطبقة الأولى: فلها ثلاث صفات تميزها عن الطبقة الثانية:

١- يتبع شعراءَها الغاوون.

٢- في كل واد يهيمون.

٣- يقولون ما لا يفعلون.

فهي طبقة كبرى يمكن أن تقسم إلى طبقات صغرى بحسب حظها من هذه الصفات، وهي طبقة يصحبها الغاوون، ويعجب بها الغاوون، فدل ذلك على أنها هي أيضًا غاوية؛ لأن الغاوي لا يتبع إلا غاويًا مثله، وهَمُّها أن تخبط خبط عشواء في الأقوال والأفعال، فهي هائمة في أودية الانحراف والضلال لا ترعوي مثلما تهيم الهيم، وكلامُها جعجعة لا طحن لها، وأقوال وادعاءات بلا أفعال، كذب في القول وكذب في الفعل...

والطبقة الثانية: لها أربع صفات:

١- آمنوا.

٢- عملوا الصالحات.

٣- ذكروا الله كثيرًا.

٤- انتصروا من بعد ظلم.

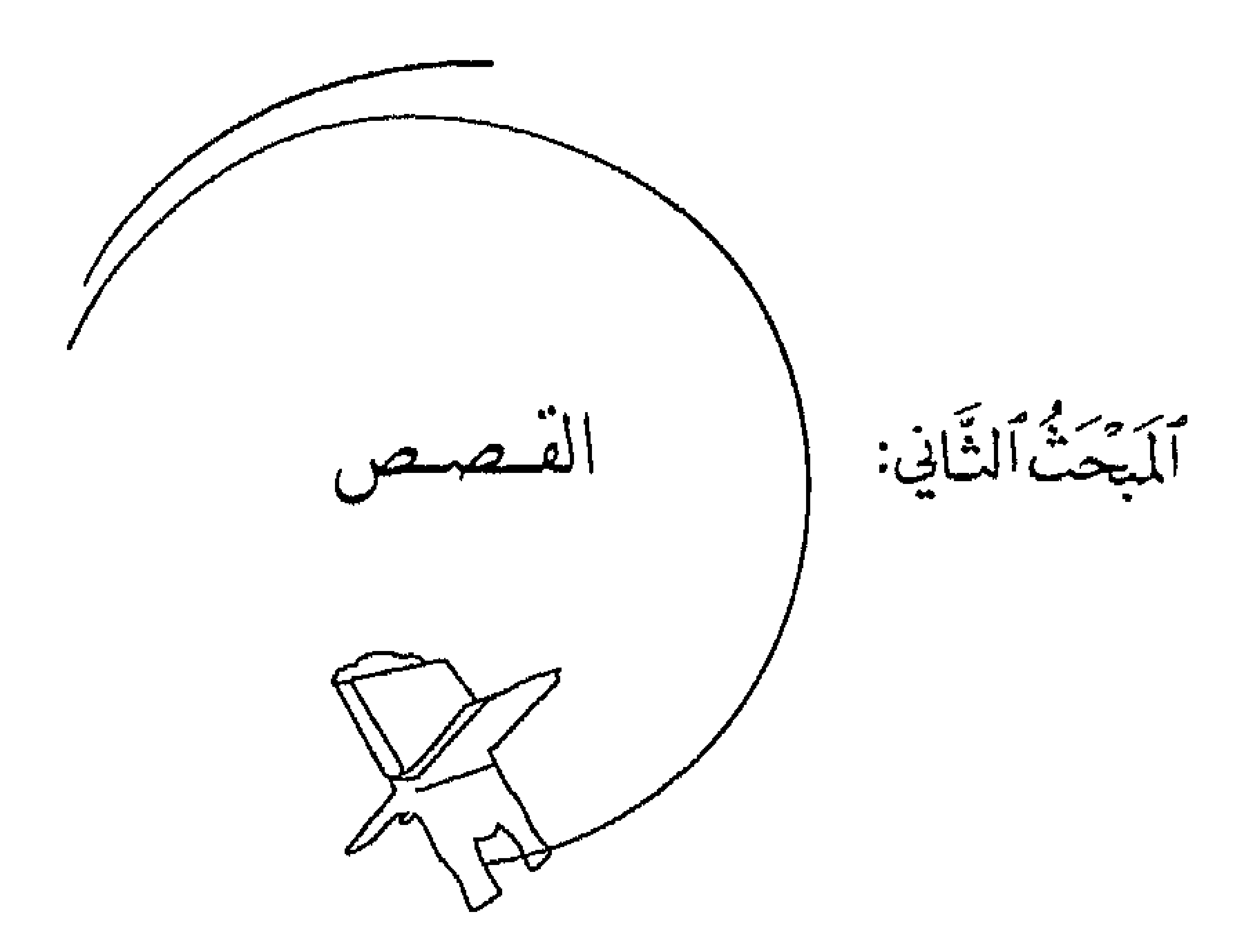
وهي أيضًا يمكن أن نجد فيها طبقات صغرى بحسب حظ شعرائها من هذه الصفات، وفي جميع الأحوال هي طبقة جمعت بين القول والفعل، آمنت بالله ففاض هذا الإيمان على الجوارح، ليتحول إلى طاقة عمل في مجال الإصلاح، ولكنها لم تغتر بذلك؛ بل استمرت في طلب القرب من ربها، والاستعانة به على أن يكون شعرها عبادة، فأكثرت من الذكر في حياتها اليومية وفي شعرها أيضًا.

وعندما تُظلم ويُعتدى على حقوقها تَنتصر دون أن تتجاوز ذلك إلى أن تَظلم؛ بل تحافظ على طعم الانتصار من بعد ظُلم، لتظل صالحة في ذكرها وفي انتصارها، والأكثر من ذلك لتظل جامعة كل الصفات الأربع في شعرها المؤمن الصالح الذاكر المنتصر.

ما سبق يعني أننا أمام تصور للشعر وليس فقط أمام توظيف له في معركة، ويفيد ذلك أن القرآن الكريم حَوَّل الشعر من مجرد وسيلة في الذب عن الإسلام والمسلمين إلى علم ينبغي أن يُعنى به؛ لأنه العلم الأول لدى القوم، وهذا يعلمنا درسًا في التعامل مع المعرفة هو أننا ينبغي أولًا أن نكون على بصيرة من العلوم المتداولة في عصرنا، وثانيًا أن نرتبها حسب قيمتها لدى الناس،

ثم ثالثًا أن نميز فيها بين ما يوافق التصور الإسلامي فنستثمره، وما يخالفه فنبعده ونعلن موقفنا صراحة منه.

* * *



المبحث الثاني: القصص

إضافة إلى الشعر كانت مجالس العرب لا تخلو من فن آخر هو القصص والحكايات، ولم يكن دورها يقل خطورة عن الشعر، فمن المعلوم أن الحكايات والقصص تؤدي دورًا خطيرًا في تشكيل الثقافة الشعبية؛ لأن طبيعة إبلاغها القائمة على مجموعة من العناصر المتداخلة بما فيها قوة الحكي والخيال...إلخ تسمح لرسالتها أن تمر بسلاسة إلى ذهن السامع، لتحدث تأثيرًا غير مباشر قد يكون أخطر بكثير من ألوان التوجيه المباشر.

وأمامنا نموذج لذلك الوعي بهذا النوع من الفنون وظف في محاربة الدعوة الإسلامية، وهدف إلى الصد عنها، وشغْل الناس بما أريد لهم أن ينشغلوا به حتى لا يسمعوا لمحمد ﷺ، أو يتأثروا به، فقد روى ابن هشام في سيرته أن النضر بن الحارث « كان إذا جلس رسول الله ﷺ مجلسًا فدعا فيه إلى الله تعالى، وتلا فيه القرآن، وحذر فيه قريشًا مما أصاب الأمم الخالية، خلفه في مجلسه إذا قام، فحدثهم عن رُستم السنديد، وعن إسفنديار،

وملوك الفرس، ثم يقول: والله ما محمد بأحسن حديثًا مني، وما حديثه إلا أساطير الأولين »[١].

وفي موضع آخر أنه كان « من شياطين قريش، وممن كان يؤذي رسول الله ﷺ، وينصب له العداوة، وكان قد قدم الحيرة، وتعلم بها أحاديث ملوك الفرس، وأحاديث رستم وأسفنديار... »[٢]، ففي الخبر أن الرجل كان على علم بثقافات غير ثقافة العرب، وأنه كان يوظف القصص ليصرف الناس عن الدين الجديد، وأنه كان يقص عليهم قصص العجم مبالغة في الإغراب، وليضمن شد انتباههم، ويفيد ذلك أن سلاح القصة وظف مبكرًا في التدافع.

والقصص في القرآن الكريم - بخلاف السنة النبوية المطهرة - ميزة السور المكية دون المدنية، لذلك عُدَّ من علاماتها[٣]، ونحن نعتقد أن لهذا علاقة بالمرحلة المكية باعتبارها مرحلة فتنة وبناء الإنسان المسلم والعقيدة الإسلامية.

فالقصص وفق هذا الاستنتاج أدت دورها في هذه المرحلة بشكل يتناسب واحتياجات المرحلة المكية، ولذلك يمكن اعتبارها عنصرًا أساسيًّا في تشكيل المعرفة الإسلامية، مثلما كانت عنصرًا أساسيًّا في السور المكية، وفي تشكيل المعرفة الإسلامية البديلة عن المعرفة السائدة.

---

(١) السيرة النبوية، ابن هشام المعافري، (١/ ٢٩٤).

(٢) م.س، (١/ ٢٤٦).

(٣) الإتقان، (١/ ٤٨).

ومن البدهي أن النظرة إلى القصة اختلفت عما هو سائد لاختلاف زاوية النظر والوظيفة التي أريد لها أن تؤديها في هذه المرحلة العصيبة.

ومن أهم أمثلة ما قلناه سابقًا ما جاء في سبب نزول سورة الكهف، فقد روى ابن هشام من طريق ابن إسحاق أن قريشًا بعثت النضر بن الحارث وعقبة بن أبي معيط إلى يهود المدينة باعتبارهم أهل الكتاب، وعندهم علم ليس عند قريش « فسألا أحبار اليهود عن رسول الله ﷺ، ووصفا لهم من أمره، وأَخْبَرَاهُم ببعض قوله، وقالا لهم: إنكم أهل التوراة، وقد جئناكم لتخبرونا عن صاحبنا هذا، فقالت لهما أحبار اليهود: سلوه عن ثلاث نأمركم بهن، فإن أخبركم فهو نبي مرسل، وإن لم يفعل فالرجل مُتَقَوِّل، فروا فيه رأيكم، سلوه عن فتية ذهبوا في الدهر الأول ما كان أمرهم؟ فإنه قد كان لهم حديث عجيب، وسلوه عن رجل طوّاف قد بلغ مشارق الأرض ومغاربها، ما كان نبؤه؟ وسلوه عن الروح ما هي؟...فأقبل النضر بن الحارث وعقبة بن أبي معيط... حتى قدما مكة على قريش، فقالا: يا معشر قريش قد جئناكم بفصل ما بينكم وبين محمد... »[1].

وقصص سورة الكهف وفق ما سبق وردت في سياق التدافع،

---

(١) السيرة النبوية،(١/ ٢٤٧) عن ابن إسحاق عن شيخ مجهول، غير أن له شاهدًا رواه الحاكم وصححه «عن ابن عباس – رضي الله تعالى عنهما – قال: قالت قريش لليهود: أعطونا شيئًا نسأل عنه هذا الرجل. فقالوا: سلوه عن الروح... ». المستدرك، حديث رقم (٣٩٦١) تفسير سورة الإسراء.

وهو وإن كان تدافعًا بين المسلمين وكفار قريش إلا أنه في العمق بين المسلمين واليهود؛ لأن علم تلك القصص عندهم في كتابهم، ولم يزد أمر قريش عن الاستعانة بهم في الرفع من درجة التحدي والاختبار للدعوة الإسلامية، مما يعني أن القصة صارت جزءًا من التدافع المعرفي بين الحق والباطل.

وإذا كانت قصة أهل الكهف وقصة ذي القرنين قد وردتا في سياق التدافع فإن قصصًا أخرى وردت في سياقات أخرى مختلفة تمامًا عن ذلك السياق، وإن ظلت محكومة بالسياق المكي العام، فهذه قصة يوسف عليه السلام - وقد أفردت بسورة كاملة من (١١١) آية - نزلت استجابة لحاجة بشرية نفسية لدى المسلمين، فقد تغيرت نفوسهم وصاروا في حاجة ماسة إلى شيء يروح عنهم، ويجدد طاقتهم، فسألوا رسول الله ﷺ - على عادة العرب في مجالسها - أن يقص عليهم.

فقد روى الحاكم وصححه « عن سعد بن أبي وقاص في قول الله ﷻ: ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ ﴾[يوسف: ٣] ، قال: نزل القرآن على رسول الله ﷺ فتلا عليهم زمانًا؛ فقالوا: يا رسول الله لو قصصت علينا، فأنزل الله ﷻ: ﴿ الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴾ [يوسف: ١]، تلا إلى قوله:﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ ﴾[يوسف: ٣] ، فتلا عليهم زمانًا، فقالوا: يا رسول الله لو حدثتنا، فأنزل الله ﷻ:﴿ اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا ﴾ [الزمر: ٢٣] ، كل ذلك يؤمر بالقرآن »(١).

---

(١) المستدرك، حديث رقم(٣٣١٩)، تفسير سورة يوسف، وقال: « هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه ». وانظر: كذلك لباب النقول في أسباب النزول=

وفي رواية أوردها ابن كثير في تفسيره: « مَلَّ أصحاب رسول الله ﷺ ملة؛ فقالوا: يا رسول الله حدثنا، فأنزل الله: ﴿ ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا ﴾ [الزمر: ٢٣]، ثم ملوا ملة أخرى؛ فقالوا: يا رسول الله حدثنا فوق الحديث ودون القرآن – يعني القصص – فأنزل الله ﷻ: ﴿ الٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴾ [يوسف: ١] »[١].

قال ابن كثير: « فأرادوا الحديث فدلهم على أحسن الحديث، وأرادوا القصص فدلهم على أحسن القصص »[٢].

وكلام ابن كثير هو ما ندندن حوله، فقد أفاد – رحمه الله – أن القرآن الكريم كان يتعامل مع الناس بحسب نوع الحاجة المعرفية التي تناسبهم في مرحلتهم تلك، وهذا ما أكدناه بحديثنا عن قصص سورة الكهف وقصة يوسف، فإذا كانت الأولى متعلقة بتحدٍّ خارجي هو اختبار كفار قريش واليهود من خلفهم مدى صحة الدعوة الجديدة، فإن الثانية متعلقة بحالة نفسية داخلية لدى المسلم نفسه، وفي جميع الأحوال تظل القصة وسيلة معرفية تحقق استجابة مرحلية، سواء أكانت لمتطلبات خارجية (النموذج الأول)، أم لمتطلبات داخلية (النموذج الثاني).

ويواجهنا سؤال له وجاهته وأهميته هنا هو: إذا كانت القصة استجابة لمتطلبات معرفية هل كانت تخضع لتصور معين أم أنها وظفت بالشكل الذي كانت توظف به القصة في عرف العرب؟

= للسيوطي، (ص ١٥٨)، والصحيح من أسباب النزول، عصام بن عبد المحسن الحميدان، (ص ٣٢١).

(١) تفسير ابن كثير، (١/ ٤٨٧).

(٢) م.س، (١/ ٤٨٨).

وبعبارة أخرى: هل يمكن الحديث عن ضوابط للقصة تجعلها منسجمة مع التصور الإسلامي وفي الوقت نفسه استجابة معرفية لمرحلة ما؟

وردت في القرآن الكريم إشارات تتعلق بسمة القصة القرآنية ووظيفتها، وفي مقدمتها أربع:

أ- القصص القرآني أحسن القصص: ورد في أول سورة يوسف قوله تعالى:﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ ﴾ [يوسف: ٣].

ب- في القصص القرآني عبرة: قال تعالى:﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [يوسف: ١١١].

جـ- القصص بهدف التفكر: قال تعالى: ﴿ فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الأعراف: ١٧٦].

د- القصص بهدف التثبيت: ﴿ وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ ﴾ [هود: ١٢٠].

كون الأمر يتعلق بأحسن القصص يقتضي أن هذه القصص خاضعة لتصور ولها وظيفة، فضلًا عن أن وصفها بالحسن باستعمال صيغة اسم التفضيل دال على أننا أمام قصص غير القصص، وذلك الحسن مرده إلى أمرين: طريقة الصياغة التي قُدِّمت بها تلك القصص، وكونها حقًّا كما تؤكده آيات أخرى كقوله تعالى: ﴿ نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ ﴾ [الكهف: ١٣]، وقوله: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ ﴾ [آل عمران: ٦٢].

ويفيد ذلك أن « الأحسنية » التي تتسم بها القصة القرآنية متعلقة بالمعنى والمبنى؛ لأن العبارة مطلقة « أحسن القصص »، وينبغي - بسبب هذا التَّميُّز - أن تُعامل على أساس أنها حمّالة معرفة غير المعرفة التي تحملها قصص البشر، وتلك المعرفة تحتاج منا أن نُجدد وسائل الفهم وآلياته باستمرار لأخذ الدروس من تلك القصص، والاستفادة منها، بدليل ما يلي:

أحد أهداف القصة القرآنية تقديم العبرة، ومبرر العبرة لم يكن ليصرف القرآن الكريم عن أن يقص بحق؛ وتلك مزية القرآن الكريم أنه يقص بحق من أجل العبرة، ويجمع بين نظافة الهدف والتصديق والتفصيل، وعلة ذلك أن الدعوة الإسلامية ليست في حاجة إلى اختراع القصص والأحداث لتثبيت الناس والرفع من معنوياتهم؛ لأن هذا الأمر يكفي فيه تجارب عميقة حقيقية للأنبياء مع قومهم، وما من نبي إلا وله تجارب يغني ذكرها والتبصير بها عن تخيل القصص.

ولذلك قال ورقة بن نوفل - أحد رجال النخبة المثقفة في بداية الوحي - لمحمد ﷺ لما ذهبت معه زوجه خديجة بنت خويلد إليه، ووصف له ما رأى وما سمع: « هذا الناموس الذي نَّزل الله على موسى، يا ليتني فيها جذعًا، ليتني أكون حيًّا إذ يخرجك قومك؛ فقال رسول الله ﷺ: « أو مخرجيَّ هم؟»، قال: نعم، لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عودي، وإن يدركني يومك أنصرك نصرًا مؤزرًا... »[١].

---

(١) صحيح البخاري، حديث رقم(٣)، كتاب بدء الوحي، باب من الوحي الرؤيا الصالحة، (١/ ١٧).

وكلام الرجل كلام عارف بتاريخ الدعوة، ومن ثم جزم بما سيلقاه محمد ﷺ من العداوة والإخراج من الديار... والأمر وارد مرات ومرات في القرآن الكريم، فمن حين لآخر كانت تنزل آيات من القرآن الكريم لتذكر الناس أنهم إن كانوا يعانون من أجل الدعوة فقد عانى مَنْ كان قبلهم، فمن ذلك قوله تعالى: ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾[آل عمران: ١٤٢]، ومنه قوله سبحانه: ﴿ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا۟ أَن يَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴾ [العنكبوت: ٢].

فطريق الدعوة محفوفة بالعراقيل والعداوة والإيذاء في الأموال والأبدان والأهل، والفتنة تمحيص، ولذلك بيَّن الرسول ﷺ للمسلمين المسألة بيانًا لا لبس فيه، ولا غموض بعده، عندما قص عليهم ما كان يجري لمن قبلهم، فقد روى البخاري عن خباب بن الأرتِّ ﷺ قال: شكونا إلى رسول الله ﷺ وهو متوسد بردة في ظل الكعبة، قلنا له: ألا تستنصر لنا؟ ألا تدعو الله لنا؟ قال:« **كان الرجل فيمن كان قبلكم يحفر له في الأرض فيجعل فيه، فيجاء بالمنشار فيوضع على رأسه فيشق باثنين، وما يصده ذلك عن دينه، ويمشط بأمشاط الحديد ما دون لحمه من عظم أو عصب، وما يصده ذلك عن دينه، والله ليتمن هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضر موت لا يخاف إلا الله أو الذئب على غنمه، ولكنكم تستعجلون** »[1].

(١) صحيح البخاري، حديث رقم (٣٦١٢)، كتاب المناقب، باب علامات النبوة في الإسلام، (٢/ ٣٩١).

وذلك كله وارد في سياق جعل الصحابة يعتبرون بمن كان قبلهم؛ لأنهم ليسوا بدعًا من التاريخ، ولا أصابتهم الفتنة وحدهم دون من قبلهم، بل تلك سنة الدعوة وسمتها وثمنها يؤديه الدعاة من لحمهم ودمهم، وثمن من يشاهد الدعوة ويعيش مرحلة تأسيسها أكبر بكثير؛ لأن جيل التأسيس قدوة من بعده فناسب أن تكون التضحيات على قدر ذلك.

والقصة القرآنية وظيفتها وفق ذلك أن تقدم تجارب الأمم السابقة والأنبياء والصالحين وما لاقوه في سبيل إعلاء كلمة الله، ثم تقدم لهم قصص الجبابرة والطغاة، وكيف كان مصيرهم، وماذا ينتظرهم يوم القيامة.

وأمر آخر يكمن في كون آية ربط القصص بالعبرة السالفة الذكر واردة في سورة يوسف بعد انتهاء قصة يوسف ﷺ والإشارة إلى معاناة الأنبياء في سبيل الله، ومواجهتهم للعنت: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰٓ ۗ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۗ وَلَدَارُ ٱلْـَٔاخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ [يوسف: ١٠٩].

فمن أجل العبرة كان قص القصص، ومن أجل العبرة يدعو القرآن الكريم الناس إلى السير في الأرض ليعتبروا بدروس التاريخ: تاريخ الأقوام الغابرة ومصيرها، والأرض ومعالم الجغرافيا عمومًا تُسْعفان كثيرًا في ذلك، فكم من أمة من الأمم عمَّرت طويلًا وبَنَت وتجبرت ثم شطبت من على ظهر الأرض كأن لم تكن، فقد قال تعالى: ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍۭ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا ۖ فَتِلْكَ مَسَـٰكِنُهُمْ

لَمْ تُسْكَن مِّنۢ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا ۖ وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ ﴾ [القصص: ٥٨]، وقال: ﴿ أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَىٰ ﴾ [طه: ١٢٨]، وقال: ﴿ فَأَصْبَحُوا لَا يُرَىٰ إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ ﴾ [الأحقاف: ٢٥]، فالمساكن ما تزال شاهدة على قوم ظالمي أنفسهم، وينبغي الاعتبار بهم.

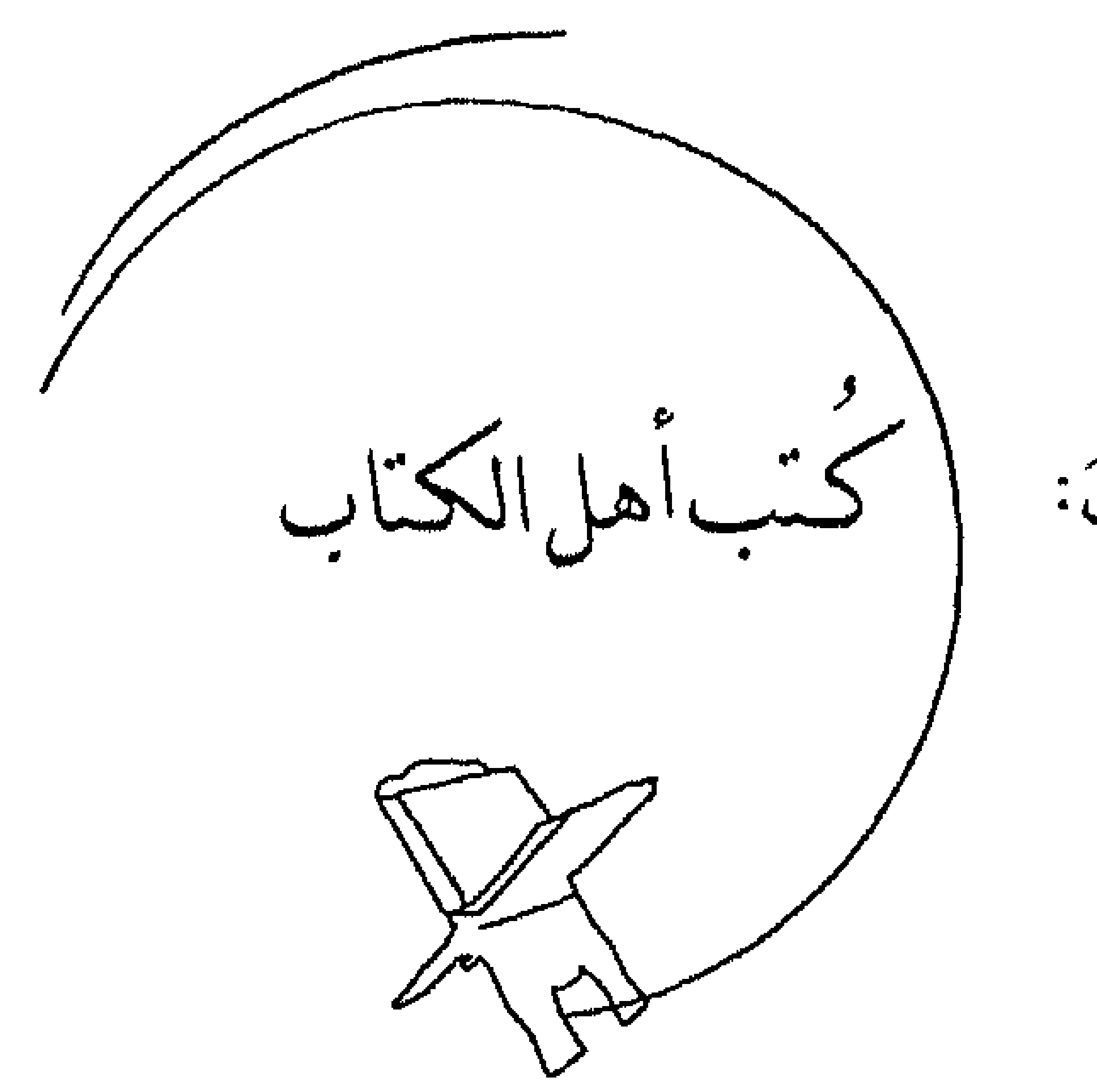
ولا يمكن أخذ العبرة إلا بالتفكر في حالنا وحال من قبلنا، ولذلك كان من وظائف القصص القرآني التفكر، وللسبب نفسه دُعينا إلى النظر في الجغرافيا وفي التاريخ؛ لأن هذا النظر من شأنه أن يبصرنا بحقيقتنا في مسيرة التاريخ، ويبرز لنا حجمنا الحقيقي، وفي الوقت نفسه يبرز لنا أنه لو دامت لنا لدامت لمن قبلنا، ولو كنا ننجو لنجا من كانوا قبلنا، فليس أمامنا إلا أن نفكر في المصير الذي ينتظرنا إن رفضنا أن ننسجم مع الكون في توجهه بالتسبيح لله تعالى، وإن قررنا أن نكون نشازًا في نظام الكون. وهذا التفكير هو وحده – إن سلمت منطلقاته وسلمت نتائجه بعد أن يتحرر العقل من سلطان الشهوة والغفلة – الكفيل بجعلنا نعتبر ونتعظ.

وأحيانًا لا يكون هدف القصص القرآني إعطاء العبرة والدعوة إلى التفكير؛ ذلك أنه في كثير من الأحيان يخاطب قومًا مؤمنين، وحينها يكون الهدف في المقام الأول تثبيتهم وحضهم على الصبر والاحتساب بأن يبسط أمامهم أنماط الابتلاء السابقة، ودرجة المعاناة، ثم كيف كان الصبر آلية الانتصار على

الأزمات، وإذا بالفرج يأتي من عند الله، وإذا بالعسر ينقلب يسرًا، والشدة تنقلب فرجًا.

إن كون القصص القرآني أحسن القصص معلل كذلك بكون هذه القصص تحقق ما لا تحققه القصص الأخرى، ففضلًا عن جمعها بين حسن المعنى والمبنى فهي تضيف إلى ذلك كونها تتوخى تقديم العبرة والدعوة إلى التفكر مثلما تثبت المؤمنين، وتلك أربعة كاملة تجعل القصة القرآنية مُخالِفة مُخالَفة عجيبة لقصص البشر بما فيها تلك القصص التي كان يتداولها العرب في مجالسهم وأنديتهم؛ ومن ثم تبني معرفة قائمة على مقاصد غير المقاصد، وذات سمات غير السمات المعهودة المتداولة.

* * *



المَبْحَثُ الثَّالِثُ: كُتب أهل الكتاب

يرد لفظ « كتاب » في القرآن الكريم (٢٣٠) مرة[١]، منها (١٢٩) مرة تتعلق بالكتب السابقة عليه، كما استعمل لفظ التوراة (١٨) مرة[٢]، والإنجيل (١٢) مرة[٣]، والزبور/ الزبُر(٩) مرات[٤]، والصحف - صحف الأنبياء - (٤) مرات[٥].

نخلص مما سبق إلى أن الكتب السابقة على القرآن الكريم ذكرت وفق الألفاظ المذكورة آنفًا وحدها (١٧٢) مرة، منها (٣١) مرة استعملت فيها العبارة « أهل الكتاب »، و(١٩) مرة للعبارة « الذين أوتوا الكتاب »، ومرتان للعبارة « الذين أوتوا نصيبًا من الكتاب ».

العدد الإجمالي لمرات ذكر الكتب السابقة يفيد أننا أمام وقفات مطولة مع نمط من المعرفة يخالف نمط المعرفة الشفوي الشائع عند العرب في كونه معرفة مدونة، وهذه المعرفة المدونة

---

(١) ن. المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، (ص٧٥١ - ٧٥٦).
(٢) م.س، (ص ٢٠١).
(٣) م.س، (ص ٨٦١).
(٤) م.س، (ص ٤١٨).
(٥) م.س، (ص ٥١١).

لها سلطتها لدى أتباع هذه الكتب، ولها قيمتها الرمزية المستمدة من السلطة الروحية التي تتمتع بها هذه الكتب على النفوس؛ لكون هؤلاء الأتباع يعتقدون أنها مقدسة، سليمة من العيوب، وغير محرفة، وهذه السلطة تجعل هذا النوع من المعرفة الكتابية معرفة من العيار الثقيل.

ودليلنا في ذلك أن العرب لما سُدَّت أمامهم الأبواب في المرحلة المكية، وعجزوا أن يقضوا على الدين الجديد، استعانوا باليهود باعتبارهم أهل كتاب كما رأينا سابقًا، والأمر نفسه يمكن قوله بخصوص لجوء الرسول ﷺ وزوجه خديجة إلى ورقة بن نوفل الذي كان قد تنصر، وكان يترجم الإنجيل، فأقل ما يدل عليه ذلك أن أهل الكتاب كان يُنظر إليهم على أنهم أهل عِلْم ومعرفة، وأنه لذلك السبب كان يُستعان بهم في حل المعضلات المعرفية.

ما سبق يجعلنا نتساءل: إذا كان كِتاب أهل الكتاب بتلك القيمة وتلك السلطة والهيبة لدى أهله، ولدى العرب، فكيف تعامل معه القرآن الكريم؟ وكيف نظر إلى المعرفة التي تضمنها كتابهم؟ ثم الأهم من ذلك: ما حدود العلاقة بين المعرفة التي كان يبنيها القرآن الكريم ويربي عليها وبين المعرفة التي كان يتضمنها كتاب أهل الكتاب؟

يتجه القرآن الكريم وجهتين فيما يتعلق بالكتب السابقة - سيما التوراة والإنجيل - وأهلها، وجهة أولى يتحدث فيها عن

« الكتاب »، ووجهة ثانية يتحدث فيها عن « أهل الكتاب »، و « الذين أوتوا الكتاب »، و« الذين أوتوا نصيبًا من الكتاب »:

أولًا: الكِتاب:

يتناول القرآن الكريم الكتب السماوية - نخص بالذكر التوراة والإنجيل - من أربع زوايا: المصدر، والهدف، والاتفاق والاختلاف، ثم المتن أصلًا وفرعًا.

فمن حيث المصدر يُذكرنا القرآن الكريم بأن مصدر الكتب السماوية الأربعة واحد، هو الله تعالى، ولهذا جمعت آيات بين الكتب الثلاثة في الآية الواحدة، وساقتها وفق ترتيب نزولها كما في قوله تعالى: ﴿ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ﴾ [التوبة: ١١١]، وفي قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ ﴾ [الأعراف: ١٥٧]، ويضعنا القرآن الكريم وجهًا لوجه أمام حقيقة وحدة المصدر من خلال بيان وحدة الرسالة، فقد كان الأنبياء يحملون مضمونًا واحدًا في دعوتهم: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَٰلَةُ فَسِيرُوا۟ فِي ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴾ [النحل: ٣٦]، وكذلك سورة هود، الآيات [٥٠، ٦١، ٨٤،....].

هذا على مستوى الأنبياء والرسل، وعلى مستوى الكتب كان اللاحق منها يصدق السابق وفق الصورة التي أُنزل عليها، فقد قال تعالى عن الإنجيل في علاقته بالتوراة: ﴿وَقَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم

بِعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ مِنَ ٱلتَّوۡرَىٰةِۖ وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡإِنجِيلَ فِيهِ هُدٗى وَنُورٞ وَمُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ مِنَ ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَهُدٗى وَمَوۡعِظَةٗ لِّلۡمُتَّقِينَ ﴾ [المائدة: ٤٦]، وقال عن القرآن الكريم: ﴿ وَمِن قَبۡلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامٗا وَرَحۡمَةٗۚ وَهَٰذَا كِتَٰبٞ مُّصَدِّقٞ لِّسَانًا عَرَبِيّٗا لِّيُنذِرَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُحۡسِنِينَ ﴾ [الأحقاف: ١٢].

ومن حيث الهدف يذكرنا القرآن الكريم أن الكتب التي نزلت كانت تهدف إلى هداية الناس، وإخراجهم من الظلمات إلى النور، بإنارة الطريق إلى الله:

يقول تعالى عن التوراة: ﴿ إِنَّآ أَنزَلۡنَا ٱلتَّوۡرَىٰةَ فِيهَا هُدٗى وَنُورٞ ﴾ [المائدة: ٤٤].

ويقول عن الإنجيل: ﴿ وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡإِنجِيلَ فِيهِ هُدٗى وَنُورٞ ﴾ [المائدة: ٤٦].

ويقول عن القرآن: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ رُوحٗا مِّنۡ أَمۡرِنَاۚ مَا كُنتَ تَدۡرِي مَا ٱلۡكِتَٰبُ وَلَا ٱلۡإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلۡنَٰهُ نُورٗا نَّهۡدِي بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنۡ عِبَادِنَاۚ وَإِنَّكَ لَتَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴾ [الشورى: ٥٢].

ومن حيث زاوية الاتفاق والاختلاف نجد في القرآن الكريم تفصيلًا للخطوط الكبرى التي تجعل تلك الكتب متفقة أو مختلفة، ومن ذلك اتفاقها في المصدر والهدف والمضمون العام بما في ذلك الدعوة إلى عبادة الله وحده، والإيمان بملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر: ﴿ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦۚ وَقَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ غُفۡرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ ﴾ [البقرة: ٢٨٥]، ومما اختلفت فيه بعض المسائل المتعلقة

بالتشريع، قال تعالى: ﴿ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ﴾ [المائدة: ٤٨]، ويمدنا القرآن الكريم بنماذج من ذلك كقوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ فَتُوبُوٓاْ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَٱقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [البقرة: ٥٤]، وقال: ﴿ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴾ [آل عمران: ٥٠] .

ومن حيث الأصل والفرع يميز القرآن الكريم بين أصل الكتب وما هو متداول بين الناس، فأما الأصل فهو وحي يوحى، ولا تناقض بينه وبين باقي الكتب السماوية، ومن هذه الناحية فكل كتاب كان ينزل كان يصدق سابقه باعتبار مصدرهما الواحد كما رأينا آنفًا، وأما الفرع المتداول بين الناس فأمره مختلف، ففيه حق وباطل، وقد بسط لنا القرآن الكريم مجموعة من الآليات لمعرفة الحق والباطل.

كما ذكر لنا نماذج كثيرة مما ورد بتلك الكتب، فمما تضمنته من الحق: ﴿ وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ وَٱلْأَنفَ بِٱلْأَنفِ وَٱلْأُذُنَ بِٱلْأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ ﴾ [المائدة: ٤٥]، ومما تضمنته من الباطل: ﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ يُضَٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبْلُ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴾ [التوبة: ٣٠] .

على أن القرآن الكريم لم يذكر لنا أن كتب أهل الكتاب إما

حق أو باطل، فهو - وإن تحدث عما فيها، أو كان فيها، من الحق، وعما دخلها من الباطل - لم يُحص الحق والباطل فيما ذكره، فهناك من غير شك ما لم يذكره، وإنما ذكر ما اقتضاه المقام، فمجال التصديق إذًا هو ما وافق ما جاء به القرآن الكريم والسنة النبوية، والباطل ما جاء فيهما خلافه، وما لم يرد فيهما ما يصدقه أو يكذبه فهو منطقة رمادية مسكوت عنها.

ثانيًا: أهل الكتاب:

ليس أهل الكتاب في القرآن الكريم طبقة واحدة، واختلافهم مرده إلى حجم تمسكهم بكتابهم، ثم كيفية تعاملهم مع الرسالة الإسلامية، وبناءً على ذلك ميز فيهم بين فئتين كبيرتين:

فئة مؤمنة تتبع الحق وتطلبه: وهؤلاء هم الذين قال عنهم الله تعالى: ﴿ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْۖ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٨٢﴾ وَإِذَا سَمِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ ٱلْحَقِّۖ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴾ [المائدة: ٨٢، ٨٣]، وقال: ﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِي يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُواْ ٱلنُّورَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓۙ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

وقال: ﴿ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِمًا ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لَيْسَ عَلَيْنَا فِى ٱلْأُمِّيِّۦنَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ [آل عمران: ٧٥]، وقال: ﴿ لَيْسُوا۟ سَوَآءً ۗ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١١٣﴾ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَأُو۟لَٰٓئِكَ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ [آل عمران: ١١٣، ١١٤]، فهذه فئة سِمتها أنها متمسكة بالكتاب، فإذا ما جاءها الحق عرفته وآمنت به.

وفئة ضالة مضلة اتبعت هواها، واتخذ انحرافها أشكالًا: يهمنا منه هنا ما يتعلق بالكتاب الذي تؤمن به وتقدسه، ومن ذلك أنها تتعامل مع كتابها تعاملًا مَصلحيًّا، فتارة تحرفه لتقحم فيه ما ليس منه، ولتضمن مصالحها بالنص، أو تُسقط منه ما يتعارض مع تلك المصالح لتتخلص مما يهددها في مصالحها، قال تعالى: ﴿ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ ﴾ [النساء: ٤٦]، وقال سبحانه: ﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُوا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ ﴾ [البقرة: ٧٩]، وقال: ﴿ قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ ۖ تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا ۖ وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنتُمْ وَلَآ ءَابَآؤُكُمْ ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴾ [الأنعام: ٩١].

وأحيانًا لا تحرفه لكنها تلجأ إلى طريقة أخرى لا تقل وقاحة عن التحريف في التعامل مع كتابها بأن تلجأ إلى تبعيضه، إذ هي لا تؤمن من الكتاب إلا بما يحقق مصالحها، قال تعالى: ﴿ ثُمَّ أَنتُمْ

هَٰٓؤُلَآءِ تَقۡتُلُونَ أَنفُسَكُمۡ وَتُخۡرِجُونَ فَرِيقٗا مِّنكُم مِّن دِيَٰرِهِمۡ تَظَٰهَرُونَ عَلَيۡهِم بِٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِ وَإِن يَأۡتُوكُمۡ أُسَٰرَىٰ تُفَٰدُوهُمۡ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيۡكُمۡ إِخۡرَاجُهُمۡۚ أَفَتُؤۡمِنُونَ بِبَعۡضِ ٱلۡكِتَٰبِ وَتَكۡفُرُونَ بِبَعۡضٖ ﴾ [البقرة: ٨٥]، وقد تؤمن به؛ لكنها تكتمه في كثير من الأحيان، ولا تُظْهِر إلا ما يخدم مصالحها، أو ما لا يتعارض معها، قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَعۡرِفُونَهُۥ كَمَا يَعۡرِفُونَ أَبۡنَآءَهُمۡۖ وَإِنَّ فَرِيقٗا مِّنۡهُمۡ لَيَكۡتُمُونَ ٱلۡحَقَّ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ﴾[البقرة: ١٤٦]، وقد تكتفي بمخالفته: ﴿ أَتَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبِرِّ وَتَنسَوۡنَ أَنفُسَكُمۡ وَأَنتُمۡ تَتۡلُونَ ٱلۡكِتَٰبَۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴾ [البقرة: ٤٤].

وقال: ﴿ وَلَمَّا جَآءَهُمۡ رَسُولٞ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٞ لِّمَا مَعَهُمۡ نَبَذَ فَرِيقٞ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمۡ كَأَنَّهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ﴾ [البقرة: ١٠١] ، وكذلك: ﴿ أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبٗا مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ يُدۡعَوۡنَ إِلَىٰ كِتَٰبِ ٱللَّهِ لِيَحۡكُمَ بَيۡنَهُمۡ ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٞ مِّنۡهُمۡ وَهُم مُّعۡرِضُونَ ﴾ [آل عمران: ٢٣]، وقوله: ﴿ فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٞ وَرِثُواْ ٱلۡكِتَٰبَ يَأۡخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلۡأَدۡنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغۡفَرُ لَنَا وَإِن يَأۡتِهِمۡ عَرَضٞ مِّثۡلُهُۥ يَأۡخُذُوهُۚ أَلَمۡ يُؤۡخَذۡ عَلَيۡهِم مِّيثَٰقُ ٱلۡكِتَٰبِ أَن لَّا يَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّ وَدَرَسُواْ مَا فِيهِۗ وَٱلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَۗ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴾ [الأعراف: ١٦٩].

إن تعامل الفئة الضالة من أهل الكتاب مع كتابها بالتحريف والتبعيض والكتمان والمخالفة يعني أن هناك خللًا في إقامة الكتاب، وهذا الخلل هو سبب ما لحقهم بما في ذلك تجاوزهم: ﴿وَلَوۡ أَنَّهُمۡ أَقَامُواْ ٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِم مِّن رَّبِّهِمۡ لَأَكَلُواْ مِن فَوۡقِهِمۡ وَمِن تَحۡتِ أَرۡجُلِهِمۚ مِّنۡهُمۡ أُمَّةٞ مُّقۡتَصِدَةٞۖ وَكَثِيرٞ مِّنۡهُمۡ سَآءَ مَا يَعۡمَلُونَ ﴾[المائدة: ٦٦]، ويصل التصوير أوجه عندما يشبه الله ﷻ هذه الفئة التي لها

كتاب لكنها لا تقيمه بالحمار الذي يحمل الكتب، فكلاهما لا يستفيد مما فيها: ﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا ۚ بِئْسَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾ [الجمعة: ٥].

والخلل في إقامة الكتاب كان سببًا في تجاوز القوم الـمُخلين بكتابهم، وهو نفسه الذي جعل الأمم المتجاوَزَة تناصب العداوة للأمم المتجاوِزَة لها، ونتج عن ذلك صراع ظاهره من على حق ومن على باطل، وباطنه حسد من الأمم المتجاوَزَة للتي أُنْعِم عليها بنزول كتاب سماوي يصحح انحرافًا وقع في سابقه: ﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَـٰرَىٰ عَلَىٰ شَىْءٍ وَقَالَتِ ٱلنَّصَـٰرَىٰ لَيْسَتِ ٱلْيَهُودُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ ٱلْكِتَـٰبَ ۗ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ ۚ فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ [البقرة: ١١٣]، وقال تعالى: ﴿ مَّا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ وَلَا ٱلْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ [البقرة: ١٠٥]، وقال: ﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَـٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ ﴾ [البقرة: ١٠٩].

ينبغي أن نتعلم درسًا مهمًّا من حديث الله تعالى عن أهل الكتاب وتعاملهم مع كتابهم، فهو يخبرنا أن تجاوزهم بإنزال التوراة ثم الإنجيل ثم القرآن الكريم خاتمًا ومصدقًا وناسخًا ومحيطًا كان سببه خللًا ما كان ينبغي أن يكون في علاقتهم بالكتاب، وقد عبر عنه القرآن الكريم بقوله: ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُواْ

ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا۟ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم ۚ مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَآءَ مَا يَعْمَلُونَ ﴿٦٦﴾ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٦٧﴾ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ ۗ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ۖ فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [المائدة: ٦٦-٦٨].

فالمشكلة أنهم لم يقيموا التوراة والإنجيل، و « إقامة الشيء: تَوْفيةُ حقه... بالعلم والعمل... ولم يأمر الله تعالى بالصلاة حيثما أمر، ولا مدح إلا بلفظ الإقامة، تنبيهًا أن المقصود منها توفية شرائطها لا الإتيان بهيئاتها »[١]، فالمطلوب من إقامة الكتاب العمل بما فيه من غير تحريف ولا تبديل ولا تبعيض، وهو ما عبر عنه الراغب وفق ما سبق أن يوفى حقه قولًا وعملًا، فالكتاب ما أنزل إلا من أجل العمل به، ومن ثم لما لم تُقِمه اليهود تم تجاوزهم بأن أُنزل الإنجيل على النصارى، فلما لم يُقِمه النصارى أيضًا أُنزل القرآن الكريم.

ولهذا نفهم لم توسط الحديثَ عن إخلال اليهود والنصارى بالكتاب حديث عن ضرورة إقامة القرآن الكريم، فقال تعالى كما رأينا في الآيات السالفة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ

(١) المفردات، (ص ٦٩٢، ٦٩٣).

لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾[المائدة: ٦٧]، والتبليغ من إقامة الكتاب؛ لأنه عمل به، والمطلوب منا وفق ما سبق - باعتبارنا الأمة الخاتمة الشاهدة الوسط - أن نُقِيم الكتاب، ولا تكون إقامة بغير عناية بهذا الكتاب وإقبال عليه تعلمًا وتعليمًا، وفهمًا وممارسة، فالإقامة للقرآن الكريم تتعارض مع الاحتفاظ به في الرفوف وفي المتاحف، وتعطيله عن الحياة العامة بدعوى قداسته والرغبة في تنزيهه عن دنس السياسة والاقتصاد والتربية والتعليم....

والذين يريدون تحنيطه بدعوى مزعومة إنما يريدون في الحقيقة حرمان الناس منه، فقد رأينا سابقًا أنه نور وهدى وبركة... فأي ضرر سيلحق بالناس أعظم من حرمانهم من هذا الخير؟! ومن ثم فمهمتنا الاستعجالية الآن أن ندافع عن كتاب ربنا ضد الذين همّشوه ويريدون له المزيد من التهميش بدعاوى باطلة، وعندما نفعل ذلك فإننا في الحقيقة نكون قد شرعنا في إقامة كتاب ربنا؛ لأن من إقامته الدفاع عن حقه في التداول بين الناس، والدفاع عن حق الناس في النهل من معينه، والاهتداء بهديه، والاستنارة بنوره، والاغتراف من بركاته... تمهيدًا لمزيد من الإقامة، ومزيد من التمكين في الأرض.

وقبل ذلك الدفاع لا بد أن نفسح له المزيد من وقتنا وجهدنا وحياتنا لنقيمه فينا أولًا، ثم في أُسرنا ثانيًا، فلا يمكن أن نُدافع عن إقامة القرآن الكريم في الأرض ونحن لا نقيمه حتى في بيوتنا، مهمتنا بعبارة وجيزة وجليلة أن نكون قرآنًا يمشي على

الأرض، ولعلنا لو وُفقنا في ذلك ندفع الناس دفعًا - بما نكون عليه - نحو إقامته في حياتهم لينعموا بما ننعم به، وتلك دعوة بالحال تغني في كثير من الأحيان عن المقال.

ووجود القرآن الكريم بيننا ليس دليلًا على إقامته، فقد روى ابن ماجه في سننه عن زياد بن لبيد قال: ذكر النبي ﷺ شيئًا فقال: « ذاك عند أوان ذهاب العلم » قلت: يا رسول الله، وكيف يذهب العلم ونحن نقرأ القرآن، ونقرئه أبناءنا، ويقرئه أبناؤنا أبناءهم، إلى يوم القيامة؟! قال: « ثكلتك أمك زياد، إن كنتُ لأراك من أفقه رجل بالمدينة، أوَ ليس هذه اليهود والنصارى يقرؤون التوراة والإنجيل لا يعملون بشيء مما فيهما »[1].

والمشكل الآن أن القرآن الكريم يُقرأ ويستمع إليه دون أي تأثير في النفوس، ودون أثر في الواقع، ومن ذلك مثلًا أن أمة اقرأ لا تقرأ، فمع أننا نسمع قول الله تعالى: ﴿ ٱقْرَأْ ﴾ إلا أننا ما زلنا نعاني من الأمية، مما يعني أن الأمر بالقراءة معطل فيها، وأننا لم نقمه كما طُلب منا.

نحن بحاجة إلى إعادة النظر في علاقتنا بالقرآن الكريم، وإلى تجديد النظر في ذلك، وبحاجة إلى تبصير الناس بكيفية الإقامة له والاستقامة على ذلك، وبحاجة إلى أن نكرس في أمتنا مفهوم مركزية القرآن الكريم، وبحاجة إلى أن نبصر الناس قبل هذا وذلك بأسماء القرآن الكريم وصفاته ووظائفه، ويقيننا أنهم -

---

(١) سنن ابن ماجه، حديث رقم (٤٠٤٨)، كتاب الفتن، باب ذهاب القرآن والعلم، (٢/ ١٣٤٤)، وقد قال عنه ابن كثير في تفسيره (٢/ ٨٣): « وهذا إسناد صحيح ».

ونحن معهم – سيغيرون نظرتهم إليه، وسيتعاملون معه تعاملًا غير التعامل الأول، ولِـمَ لا يفعلون وقد اكتشفوا أنه نور وهدى وموعظة وذكرى وشفاء وبركة...؟!

وعودة إلى حديث القرآن الكريم عن أهل الكتاب وكتابهم تجعلنا نسجل ملاحظتين أساسيتين:

الأولى: هي أن القرآن الكريم نزل مُصحِّحًا لما وقع في الكتب السابقة، وكاشفًا لجرائم أصحابها في حقها، ومع ذلك ظل منصفًا لتلك الكتب حتى في لحظة انحرافها، ومنصفًا لأهلها، ولذلك ميز على مستوى الكتب بين الحق والباطل، كما ميز في أهل الكتاب بين المؤمنين والضالين، فلم يمنعه أنه جاء خاتمًا ومصحِّحًا أن يُنصفهم، وأن يبين ما معهم من الحق.

وهذا يعني أنه تعامل مع أهل الكتاب وكتابهم تعاملًا قائمًا أساسًا على غربلة المعرفة التي يمتلكونها، مميزًا في ذلك بين أنماط من المعرفة تتراوح بين الحق والباطل والمسكوت عنه، وهو بذلك يتضمن خطابًا ضمنيًّا كامنًا في كون حقهم قد ذكره القرآن الكريم، وباطلهم قد كشفه، والمسكوت عنه سيظل كذلك؛ لكونه ليس يحمل قيمة معرفية كقيمة ما تم التركيز عليه في الصنفين السابقين.

والثانية: أنه لم يمنع القرآن الكريم كون طائفة كبيرة من أهل الكتاب ضالة مضلة عبثت بالكتب المنزلة، واضطهدت المؤمنين، وقتلت الأنبياء، أن يجعل منهج التعامل معها قائمًا على الحسنى، فقد قال سبحانه: ﴿ وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ إِلَّا

ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْۖ وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَأُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمۡ وَٰحِدٞ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ﴾ [العنكبوت: ٤٦]، فالحوار هو المنهج الأصل في التعامل معهم، سيما إذا لم يصدر عنهم في حق الدعوة ما يدفع دفعًا نحو استعمال لغة القوة [١].

وعلة حصر العلاقة بأهل الكتاب غير الظالمين في الظروف العادية في الجدال بالتي هي أحسن أن الأمر يتعلق بخلاف معرفي ذي طابع عقدي، وعندما يتعلق الأمر بهذا النوع من الخلافات فإنه لا يمكن حسمه بـ « فكر القوة »؛ بل بـ « قوة الفكر »؛ بمعنى أن الذي ينتصر في هذه المعركة الفكرية هو من يجيد الدفاع عن معتقده من خلال تجييش فكره بمختلف عناصر القوة الفكرية والمعرفية.

وأما من يلجأ إلى « فكر القوة » فهو في الحقيقة يعبر عن خلل في بنيته العقدية يلجأ إلى تغطيته وستره باللجوء إلى القوة.

وللأمر الذي فصلناه آنفًا استعمل الله ﷻ مصطلح « تجادلوا » ولم يستعمل مصطلح « تحاوروا »، مع أن الجدل نوع من أنواع الحوار، غير أن له قيمة دلالية زائدة كامنة في كون الخلاف المعرفي خلافًا عقديًّا عقدت عليه النفوس والعقول، وعندما يصل الأمر إلى هذه الدرجة فإنه يحتاج إلى جهد معرفي حجاجي من أجل بيان أوجه الخلل فيه، فالحوار في هذه الحال سيكون

---

(١) يهود بني قريظة وبني النضير خير مثال على ذلك لما أخلفوا العهود والمواثيق. ن. صحيح السيرة النبوية، إبراهيم العلي، (ص ٢٠٤ – ٢٠٧) و (٢٦٨) و(٣٢٤ – ٣٢٦) و (٣٧٠ – ٣٧٧).

مشبعًا بالحجج والبراهين لاقتلاع أفكار وتصورات تمكنت من النفوس زمانًا، ويتطلب تغييرها إقناعًا، ولا يكون الإقناع إلا إذا كان الحجاج، ولا يكون الحجاج والإقناع إلا إذا كان هناك صوت واحد هو صوت التدافع الفكري البعيد عن صوت القوة والإرهاب الفكري، فمرد الأمر إذًا إلى ضرورة إجادة « قوة الفكر » لا « فكر القوة »[(١)].

وعلاقة بالموضوع الذي ندرسه - موضوع بناء مجتمع المعرفة - نلاحظ أن نهي القرآن الكريم عن استعمال وسيلة غير الجدال بالتي هي أحسن أحد أهم سمات المعرفة التي أراد لنا الله تعالى أن نبنيها ونعتز بها، ذلك أنه نبهنا إلى أمر خطير، وهو استعمال القوة في غير محلها، وفرض عقيدتنا على الغير بالقوة، وهذا ما يبينه القرآن الكريم بيانًا لا بيان بعده: ﴿ لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ ﴾ [البقرة: ٢٥٦].

فالمجال المعرفي ليس مجال إكراه؛ بل مجال إقناع، وعندما يُكره الناس على اعتقاد ما لا يعتقدونه فإن ذلك سيؤدي إلى نشوء نمط من الناس يُبدون ما لا يُخفون، ويتربصون بمن يُكرههم الدوائر، ينتفضون في كل فرصة، ويكونون عونًا على من يُكرههم، بينما يختلف الأمر حال الإقناع، إذ يتحولون إلى حماة لما يعتقدونه، ومدافعين عنه، ولو كلفهم ذلك حياتهم، والأمر ملاحظ ولا يحتاج كثير إثبات.

---

(١) ينظر الحوار منهج حياة، (ص ٤٩ - ٦٠).

فالناس عندما يتشربون عقيدة ما يضحون من أجلها، ولو كلفهم ذلك حريتهم أو حياتهم، ولا يملك الإنسان أغلى من حياته ليقدمها فداءً لما يعتقده، ومن ثم فالإسلام يوجه إلينا هذه النصيحة المعرفية الغالية: إذا أردتم أن يكون لهذا الدين أتباع يعيشون ويموتون من أجله فلا تكرهوا عليه الناس، وبدل ذلك الجهد في قهر المخالفين لجعلهم مؤيدين يمكن بذل جهد آخر قد يكون أقل منه لإقناعهم ومجادلتهم بالتي هي أحسن.

ومعرفة تقوم على الإكراه معرفة فاشلة؛ لأنها ارتضت غير ذات الشوكة.

وهناك فئة عريضة من الناس تعتقد أنها بالقتل تستطيع إسكات الأصوات التي تخالفها إلى الأبد، وهي فئة واهمة ولا شك؛ لأن قتل المخالف هو في الحقيقة ليس سوى عملية سقي لأفكار يحملها، غير أن هذا السقي ليس كأي سقي؛ بل هو سقي لها بأغلى ما يملك، وعندها تجد أفكاره انتعاشًا وقد سقيت بمواد كيماوية اسمها التضحية والدفاع عن الفكرة حتى الموت، وتتحول تلك الأفكار إلى قوة هائلة لا يمكن إسكاتها، فما الذي يربحه القتلة إذًا؟

يدفعنا ما سبق إلى فهم آية الجدال بالتي هي أحسن وآية النهي عن الإكراه الديني والفكري فهمًا معرفيًّا وحضاريًّا، وأن نخلص إلى أنه عندما يكون لنا مخالفون يحملون أفكارًا نعتقد أنها خاطئة، وفي غير صالح البشرية، علينا أن نحاول قتل تلك الأفكار لا قتل

أصحابها، وقد رأينا أن قتل أصحاب تلك الأفكار المخالفة يؤدي إلى انتعاشها، ولا يكون قتل تلك الأفكار إلا بالجدال بالتي هي أحسن، بمعنى أننا سنُعد لهم ما استطعنا من قوة فكرية ومعرفية لكشف عيوب تلك الأفكار والمعتقدات التي يحملونها.

وينبغي أن تكون ثقتنا عالية في هذا المنهج، إلا نفعل تكن فتنة في الأرض وفساد كبير، وكيف لا تكون الفتنة ويكون الفساد والله تعالى يقول: ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡۖ وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَأُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمۡ وَٰحِدٞ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٦]، ويقول: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّ﴾ [البقرة:٢٥٦]، ثم كيف لا تكون الفتنة ويكون الفساد ونحن نحمل خللًا في بنية اعتقادنا؛ لأننا لا نثق بعقيدتنا، ولا نصدق أنها قوية قوة ذاتية بمعزل عنا، وأن دورنا ليس هو إكسابها القوة؛ بل هو المجيء بها كما هي، وتقديمها للناس كما هي؟! ودليلنا في ذلك أن الله تعالى يقول: ﴿وَقُلۡ جَآءَ ٱلۡحَقُّ وَزَهَقَ ٱلۡبَٰطِلُۚ إِنَّ ٱلۡبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقٗا﴾ [الإسراء: ٨١].

أي أن مهمتنا هي المجيء بالحق لا قتل أصحاب الباطل، وعندما نجيء بالحق ينزهق الباطل من تلقاء ذاته؛ لأنه لا يملك القوة التي تجعله يصمد أمام الحق، وهو إنما يستأسد حينما يغيب الحق، وحينما لا يثق أصحاب الحق في قوة ما معهم من الحق، وحينما يتخلفون عن حقهم لسبب من الأسباب.

* * *



خلاصة الفصل الثالث

جَمَع القرآن الكريم معارف وعلومًا شتى مما جعله أشبه ما يكون بمكتبة مشحونة بالكتب المختلفة، ومن ثم أحاط بالعلوم والمعارف التي كانت متداولة زمن نزوله كالشعر والقصة وكتاب أهل الكتاب.

والقرآن الكريم يعلمنا - وفق ما سبق- كيف نتعامل مع العلوم وأشكال المعارف السائدة في عصرنا، ثم يقدم لنا منهجًا لكيفية اتخاذ موقف منها، وكيفية جعل تلك العلوم خادمة للدعوة الإسلامية بعد إخضاعها للتصور الإسلامي للكون والحياة والناس.

يعلمنا القرآن الكريم كذلك أن نكون موضوعيين في عرض المواقف المختلفة مهما خالفت مواقفنا، ثم كيف نعلن اقتناعاتنا بما يضمن إقناع الآخر، أو على الأقل بما يجعله على بصيرة من ذلك، ومن طبيعة علاقتنا بتلك الاقتناعات.

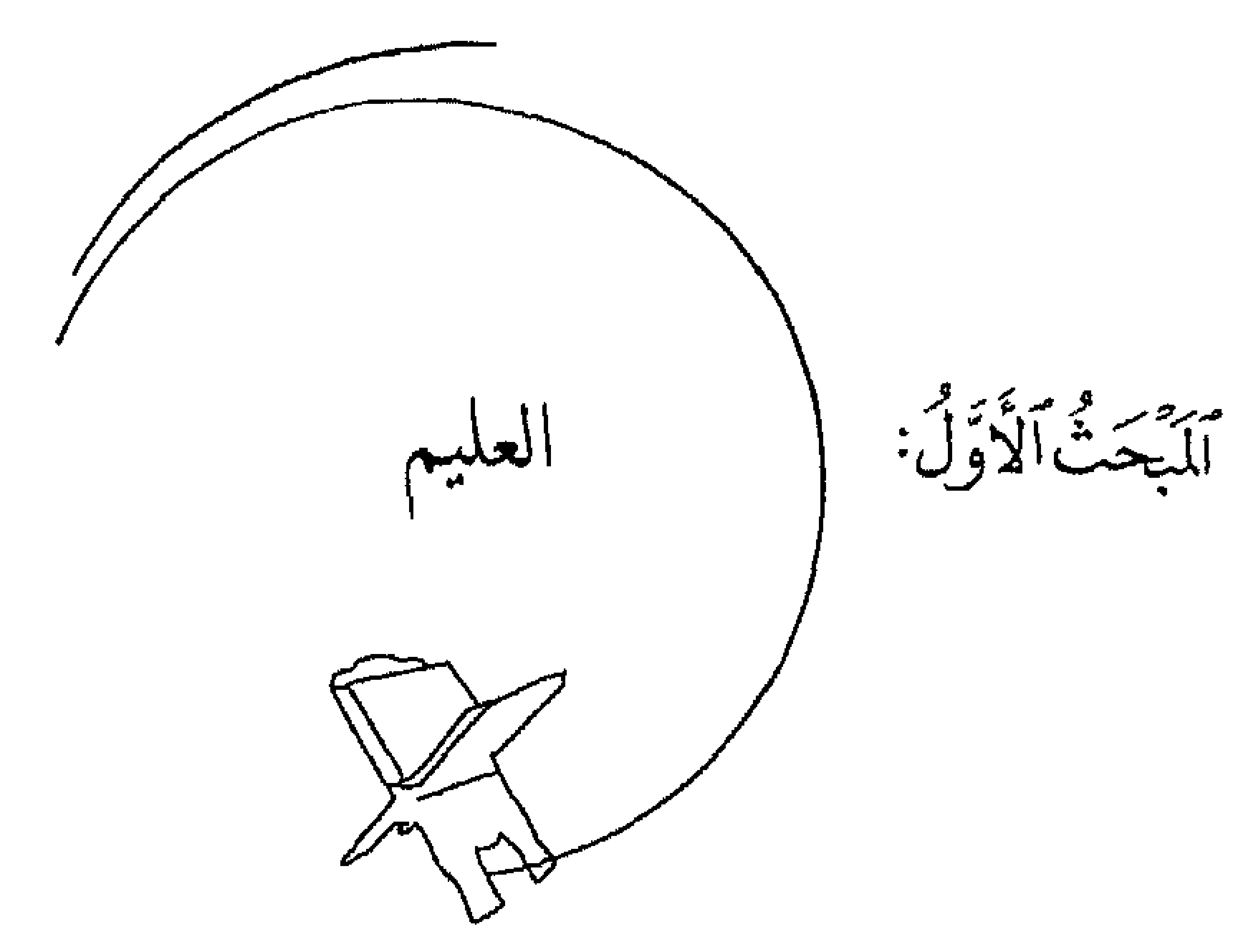
إن الدرس الأهم في هذا الفصل هو كيف ننفتح على علوم العصر ومعارفه دون أن يكون كل ذلك على حساب ما نؤمن به، ثم كيف نُحَوِّل ذلك الانفتاح إلى نقطة قوة لهذا الدين.

* * *



الفَصْلُ الرَّابعُ

العلمُ والعلماءُ في القرآن الكريم



المَبْحَثُ الأَوَّلُ: العليم

يرد لفظ « عليم » وحده في القرآن الكريم (١٦٢) مرة[1]، وهو في (١٥٥) مرة صفة لله تعالى، وفي « ٤ » مرات صفة لموسى عليه السلام من لدن قوم فرعون على أنه: ﴿ سَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴾ [الأعراف: ١٠٩- ١١٢] وكذلك في سورة يونس آية (٩٧)، والشعراء (٣٤، ٣٧)، ومرة في وصف الملإ من قوم فرعون للسحرة: ﴿ سَحَّارٍ عَلِيمٍ ﴾ [الشعراء: ٣٧]، وفي مرتين وصف من لدن المرسَلين للغلام الذي بشر به إبراهيم عليه السلام[2]، هذا الشكل من الحضور يبين أمورًا:

أ- الله عز وجل هو العليم.

ب- ينبغي أن نلتمس منه العلم؛ لأنه لا عليم سواه.

جـ- وَصْفُ غيرِ الله تعالى بكونه عليمًا كان - في خمس حالات - حكاية لقول أناس يربطون السحر بالعلم، في زمن

---

(١) المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، (ص: ٦٠٥ - ٦٠٧).

(٢) الحجر، (٥٣)، والذاريات، (٢٨).

كان فيه السحر علمًا، ولعله للسبب نفسه قال الطبري- رحمه الله – : « إن الساحر كان عندهم معناه العالم، ولم يكن السحر عندهم ذمًّا »[(١)].

وعندما نأخذ بعين الاعتبار أن زمن موسى عليه السلام هو زمن تفنن قوم فرعون في فنون السحر، وأنه للسبب نفسه جاءت معجزة موسى عليه السلام متحدية القوم في المجال الذي برزوا فيه، نفهم بتلقائية لِـمَ كان التعدي على صفة من صفات الله من لدن قوم يحكمهم رجل يقول: ﴿ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴾ [النازعات: ٢٤]، ولِـمَ كان السحرة في نظر القومِ النخبةَ والطليعةَ العلمية، ثم السلطة المعرفية التي تستعين بها الدولة في ما يواجهها من تحديات (الاستعانة بالسحرة في مواجهة موسى عليه السلام).

وقصة موسى وفق هذا الفهم تتضمن إشارة قوية بهذا الخصوص، وتدل فعلًا أن السحرة كانوا قوم علم، ولم يكونوا مجرد مشعوذين كما شاع فيما بعد، وتتعلق تلك الإشارة بكون السحرة لما غُلبوا بفعل عصا موسى أذعنوا للحق، ولم يضرهم تهديد فرعون؛ بل تحدوه تحديًا عجيبًا حينما قالوا: ﴿ لَا ضَيْرَ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ۝٥٠ إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَٰيَٰنَآ أَن كُنَّآ أَوَّلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الشعراء: ٥٠، ٥١]، وهم الذين أسلموا لتوهم، ولا يمكن أن يُفهم ذلك إلا على أنهم كانوا على دراية تامة بمختلف علوم

(١) جامع البيان عن تأويل آي القرآن، أبو جعفر محمد بن جرير الطبري، (٢٥/ ٨٠).

عصرهم التي مكنتهم من الوقوف على حقيقة ما جاء به موسى من المعجزات، وذلك هو الذي جعلهم يفهمون أن الأمر أمر وحي لا سحر؛ لأن الفارق لديهم بيِّنٌ بين الخوارق والمعجزات، بين ما في قدرة البشر وما ليس في قدرتهم.

د- لم يطلق الله ﷻ على غيره أنه عليم قط، غير أن آيتين توهمان خلاف ذلك، ومن ثم احتجنا أن نقف معهما قليلًا:

أما الآية الأولى: فهي قوله تعالى: ﴿ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ ﴾ [الذاريات: ٢٨]، وهذه الآية عندما نقرنها بشبيهتها في سورة الحجر: ﴿ قَالُواْ لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ ﴾ [الحجر: ٥٣] ، نفهم أن أمرها يتعلق بالحكاية لما قيل لا غير، فإذا ما أضفنا إلى ذلك أن الله ﷻ لما تحدث عن ذلك التبشير بضمير المتكلم لم يذكر تلك الصفة؛ بل قال: ﴿ وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ [الصافات: ١١٢]، وهذا نحسبه بيانًا كافيًا شافيًا في أن الله تعالى لم يطلق قط على أحد من مخلوقاته أنه عليم.

وأما الآية الثانية: فهي قوله تعالى: ﴿ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴾ [يوسف: ٧٦]، وقد فُسرت لفظة « عليم » تفسيرين: الأول أنها بمعنى عالم، ومن ثم فهي دالة على مراقي العلم ومراتبه، والثاني أنها صفة لله تعالى، بمعنى أنه مهما بلغ علمنا فإننا ينبغي أن نستحضر أنه لا شيء أمام علم الله تعالى العليم، أي: « فوق العلماء كلهم عليم هم دونه في العلم،

وهو الله تعالى »[1]، والقولان عندنا ليسا بالوزن نفسه؛ فنحن نميل إلى أن لفظ « عليم » دال على الله تعالى، ولنا في ذلك حجتان:

الأولى: أنه في القرآن الكريم كله لم يوصف مخلوق من مخلوقات الله من لدن الله تعالى بأنه عليم، فكيف نخرج هذه الآية عن تلك القاعدة ولا دليل في ذلك؟!

والثانية: خبر رواه ابن كثير في تفسيره، فقد قال: « روى عبد الرزاق، عن سفيان الثوري، عن عبد الأعلى الثعلبي، عن سعيد بن جبير قال: كنا عند ابن عباس فحدث بحديث عجيب، فتعجب رجل، فقال: الحمد لله فوق كل ذي علم عليم، فقال ابن عباس: بئس ما قلت، الله العليم فوق كل عالم »[2]، وفيه دلالة على أن المقصود بـ « ذي علم » العلماء، وأن المقصود بالعليم الله تعالى، وقد ذكر ابن كثير أنه في قراءة عبد الله ابن مسعود « وفوق كل عالم عليم »[3]، وبه يرتفع الإشكال.

وكون الآية تصف الله تعالى بأنه عليم بصيغة النكرة لا إشكال فيه، فقد وُصفَ الله ﷻ بأنه « عليم » بالصيغة نفسها مرات[4].

---

(١) الكشاف، الزمخشري، (٢/ ٤٦٤)، وينظر كذلك تفسير ابن كثير، (٢/ ٥٠٦)، ومفردات ألفاظ القرآن، (ص ٥٨١).

(٢) تفسير ابن كثير، (٢/ ٥٠٦).

(٣) م.س.

(٤) تنظر مثلًا سورة البقرة، الآيات (٢٩ و ٩٥ و ١١٥ و ١٥٨ و ١٨١ و ٢١٥ و٢٢٤ و ٢٢٧ و ٢٣١ و ٢٤٤ ...).

إن الوقفات التي وقفناها آنفًا كان الهدف منها تحرير حقيقة ينبغي أن تكون مقدمة أساسية في كل منظومة معرفية ينبغي أن نكتشفها، أو نبنيها، أو أن نعيد بناءها، وتلك الحقيقة هي أن الله تعالى هو العليم، وهي حقيقة على بداهتها تحمل معاني جليلة، منها:

أنه لما كان هو العليم احتاجت مخلوقاته إليه، احتياج الجاهل إلى من له علم، وأكثر.

وأنه إذا ما شرَّع فشرعه ينبغي أن يُتبع؛ لأنه صادر عن عليم.

وأنه ينبغي أن نلتمس العلم من العليم.

وأن العلم الحق هو العلم الذي يرضاه العليم لنا، وهو العلم الذي نأخذه عنه.

وأن أشرف العلوم ما أمرنا العليم بتعلمها، وما وصلنا منه نص عليها، وأمر بتعلمها بالأولوية.

وأن كل علم لا يصب في العلم الذي يرضاه لنا الله تعالى من قريب أو بعيد هو أقرب إلى الجهل منه إلى العلم؛ لأنه وإن كان علمًا في ميزان الناس فهو ليس كذلك في ميزان الله، ما دام أن الله تعالى قال لنا: إن العلم هو هذا الذي أمرتكم بتعلمه.

وأن العلم وفق ما سبق ينبغي أن يتجه وجهتين: وجهة العلم باللَّه وهي الهدف الأسمى، والغاية التي ما بعدها غاية، والعلم بأمر اللَّه وهو العلم الذي يمهد للأول، قال ابن رجب الحنبلي: « فأصل العلمِ العلمُ باللَّه الذي يوجب خشيته ومحبته والقرب منه والأنس به والشوق إليه، ثم يتلوه العلم

بأحكام اللَّـه، وما يحبه ويرضاه من العبد، من قول أو عمل أو حال أو اعتقاد، فمن تحقق بهذين العلمين كان علمه علمًا نافعًا، وحصل له العلم النافع، والقلب الخاشع، والنفس القانعة، والدعاء المسموع، ومن فاته هذا العلم النافع وقع في الأربع التي استعاذ بها النبي ﷺ»[١].

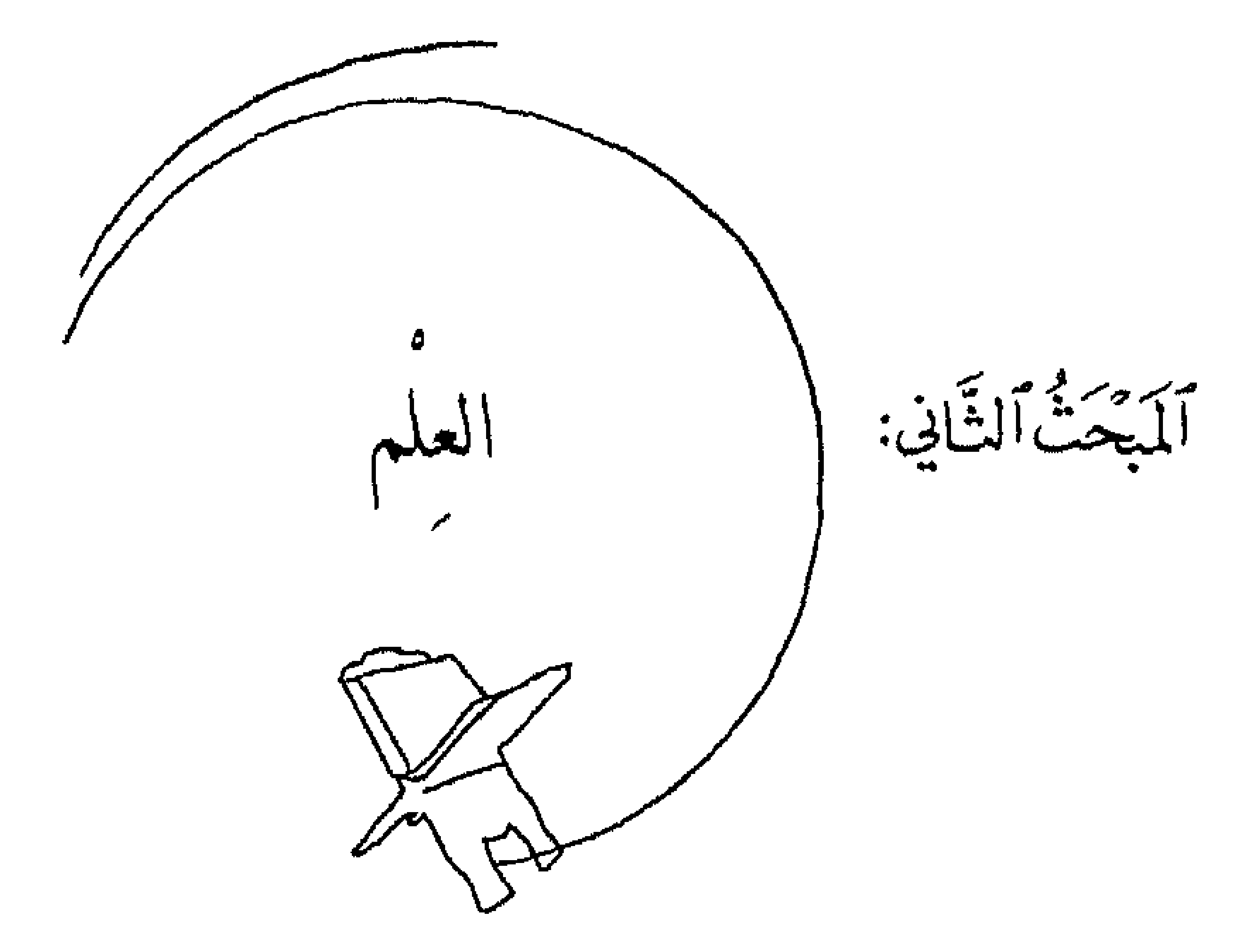
وأن علومنا كلها ينبغي أن تكون مؤطرة بإطار عام هو أن تتجه نحو اللَّـه تعالى بالعبادة، تكون علومنا عبادة، وتكون عبادتنا استعانة بالعليم في علومنا، ثم يكون التقدم الذي نحرزه في هذه العلوم بفضل اللَّـه العليم وسيلة تحسين شروط العبادة، وتقريب العبد من ربه، وجعله على بصيرة من عبادته، وذلك كله في دورة مستمرة: علم بكيفية العبادة، فعبادة بعلم، فاستعانة بالعليم على العلم، فمزيد من العبادة، ومزيد من العلم...

إن ما سبق يعني أن الوحي - باعتباره من علم اللَّـه تعالى الذي بعثه إلينا - مركز المسألة المعرفية في تصورنا لإقامة أمة العلم، ولا يكون مركزًا إلا إذا قُدم على غيره تعلمًا وتعليمًا، وعناية وأولوية في انشغالات الفرد والأمة، وفي مخططاتها.

* * *

---

(١) فضل علم السلف على الخلف، ابن رجب الحنبلي، (ص١٢١، ١٢٢).



المَبْحَثُ الثَّاني: العِلْم

رأينا فيما سبق أن كون الله تعالى هو العليم يعني أن العلم إنما يطلب باللّـه تعالى ومنه، ولذلك قال تعالى: ﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلْإِنسَـٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ [العلق: ١ – ٥]، فالأمر بالقراءة وارد في سياق التذكير بنعم اللّـه تعالى، ومنها أنه علَّم بالقلم، وأنه علَّم الإنسان ما لم يعلم، فالمعلِّم هو اللّـه تعالى، وتعليمه لنا نعمة، والعِلْم يمر عبر القراءة، ومقصدنا مما سبق أن اللّـه تعالى مصدر العلم، ولذلك قالت الملائكة لما وُضعت في امتحان أمام آدم ﷺ: ﴿ سُبْحَـٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [البقرة: ٣٢]، فهذه شهادة من المعصومين.

والأمر نفسه يَرد في آيات أخرى صريحة:

فقد قال عن يعقوب ﷺ: ﴿ وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَـٰهُ ﴾ [يوسف: ٦٨].

وقال عن يوسف ﷺ: ﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَـٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [يوسف: ٢٢].

وقال عن الخضر: ﴿ وَعَلَّمْنَـٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴾ [الكهف: ٦٥].

وقال عن لوط عليه السلام: ﴿ وَلُوطًا ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ﴾ [الأنبياء: ٧٤].

وقال عن داود وسليمان عليهما السلام: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ عِلْمًا ۖ وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [النمل: ١٥].

وقال عن موسى عليه السلام: ﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [القصص: ١٤].

ولا يخفى أن العلم الذي أوتيه الأنبياء في شق منه يتعلق بالوحي والنبوة، فقد ذكر ابن كثير عن مجاهد أنه قال في تفسير قوله تعالى: ﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [القصص: ١٤] « يعني النبوة »[(١)]، غير أن ذلك لا يعني أن العلم الذي علمه الله تعالى للأنبياء هو فقط ذلك العلم، وقد رأينا إقرار الملائكة أنه لا علم لها إلا ما علمها الله تعالى.

وما دام العلم من الله تعالى، وهو يعلمه من شاء من عباده، فإنه أمرنا أن نلجأ إليه ونستعين به في الاستزادة من العلم، فقد قال تعالى: ﴿ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا ﴾[طه: ١١٤]، ويعني ذلك أن العلم لا حد له؛ لأنه لم يقيده، وأن العلم من الله، وأن ما يمنحنا الله إياه من علمه ليس سوى جزء يسير بحسب ما تطيقه عقولنا وأعمارنا، وهو ما توضحه آية أخرى: ﴿ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ ﴾ [البقرة: ٢٥٥][(٢)]، فالأمر يتعلق أولًا بعلم يعلمه الله تعالى، وثانيًا ببعض علم، وثالثًا بمشيئة الله.

---

(١) تفسير ابن كثير، (٣ / ٤٠٠).

(٢) وانظر كذلك : سورة الأنعام (٨٠)، والأعراف (٨٩)، وطه (٩٨)، والطلاق (١٢)، وفاطر (١١).

يفيد ما سبق أن العلم نعمة ينعم بها الله تعالى على من يشاء من عباده، وأن الموفق من عرف مصدر العلم، وعرف كيف يزيد من رصيده منه، وخير طريق للاستزادة طلب العلم من العليم.

وما كل علم يمكن للإنسان أن يحيط به، فهناك علوم من اختصاص الله تعالى، لا يشاركه فيها أحد من عباده، ولذلك قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌۢ ﴾ [لقمان: ٣٤]، وقد روى البخاري عن سالم ابن عبد الله عن أبيه: أن رسول الله ﷺ قال: « مفاتح الغيب خمس: إن الله عنده علم الساعة... »[١]، وتلك أمور مصيرية تتعلق بمصير الكون كله، ومن ثم لم يُطلع عليها أحدًا من خلقه، فهذا رسول الله ﷺ خير الخلق وأشرفهم عندما سئل عن الساعة أُمر أن يقول: ﴿ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى ﴾ [الأعراف: ١٨٧][٢].

واختصاص الله تعالى بأنواع من العلم يصب في دائرة الآية الكريمة: ﴿ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴾ [يوسف: ٧٦]، ويزيد عنها، فمهما بلغ علم الإنسان فإنه لن يصل إلى معرفة ما اختص به الله تعالى، وذلك دال على أنه ﷻ هو العليم.

كما أن الله تعالى لما كان هو الذي علمنا فإنه من غير المعقول أن نقيس علمنا بعلمه؛ لأننا بذلك نخطئ في حقه ﷻ؛ إذ كيف يقاس الـمُعَلَّم بالذي علَّمه، سيما أنه علَّمه بعضًا من عِلْم.

---

(١) صحيح البخاري، حديث رقم (٤٦٢٧)، كتاب تفسير القرآن، باب وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو، (٣/ ١٧٦، ١٧٧).

(٢) وانظر كذلك: سورة طه (٥٢)، والأحزاب (٦٣).

والفرق ليس كامنًا فقط بين عِلْم الله تعالى وعِلْم مخلوقاته؛ بل هو كامن أيضًا بين مخلوقاته نفسها، وقد رأينا أن الله تعالى يُعلِّم من يشاء، فدل ذلك على أن الناس ليسوا سواء في مجال العِلم، ورأينا أننا أُمرنا أن نستزيد من العلم بالاجتهاد في الدعاء، وما كل دعاء يُقبل، ولا أدعيتنا سواء، فلا لنا جميعًا المستوى نفسه من الدعاء الخاص بالعِلم، أو الوجهة نفسها، أو النَّفَس نفسه، ولسنا كلنا نحمل الحماس نفسه...

غير أن الآية تتضمن خطابًا ضمنيًّا لا يتعلق فقط بالتفاوت بين عِلم الله وعِلم البشر، وليس فقط في التفاوت بين إنسان وآخر؛ بل يتعلق كذلك بحفز الهمم لطلب المعالي، ومن ذلك الجِد المستمر من أجل أن يكون عِلمنا في المقام الأول بين بني جنسنا، وأن نتطلع باستمرار إلى المزيد من عِلم الله تعالى، ثم أن يكون العِلم الحق الذي لا نرتوي منه هو العلم الذي أراد الله تعالى منا أن نحث السير في طلبه، ولذلك قال رسول الله ﷺ في معنى قريب مما قلناه آنفًا من وحي الآية الكريمة: « منهومان لا يشبعان: منهوم في علم لا يشبع، ومنهوم في دنيا لا يشبع »[1]، والنهم في اللغة « بلوغ الهمة في الشيء »، و « إفراط الشهوة في الطعام أن تمتلئ عين الآكل ولا تشبع »[2]، فدل ذلك على أننا أمام حالة من الإقبال على العلم والمال لا حد له.

---

(١) رواه الحاكم في المستدرك، (١ / ١٦٩)، حديث رقم (٣١٢)، وقال: « هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه ولم أجد له علة ».
(٢) لسان العرب، (١٢/ ٥٩٣)، مادة « نهم ».

وإذا كان العلم من الله تعالى، فما حال من رضي الجهل؟

تجيبنا مجموعة من الآيات الكريمة إجابات متعددة من خلال عرض نتائج غياب العلم لدى نماذج بشرية عديدة، ولنتأمل هذه النماذج:

١ - ﴿ هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ حَٰجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [آل عمران: ٦٦].

٢ - ﴿ وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ ۖ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا ﴾ [النجم: ٢٨].

٣- ﴿ وَخَرَقُواْ لَهُۥ بَنِينَ وَبَنَٰتٍۭ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ [الأنعام: ١٠٠].

٤- ﴿ وَلَا تَسُبُّواْ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّواْ ٱللَّهَ عَدْوًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ [الأنعام: ١٠٨].

٥ - ﴿ وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَآئِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُعْتَدِينَ ﴾ [الأنعام: ١١٩].

٦ - ﴿ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ قَتَلُوٓاْ أَوْلَٰدَهُمْ سَفَهًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُواْ مَا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ ٱفْتِرَآءً عَلَى ٱللَّهِ ۚ قَدْ ضَلُّواْ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ ﴾ [الأنعام: ١٤٠].

٧- ﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا لِّيُضِلَّ ٱلنَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [الأنعام: ١٤٤].

٨- ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَٰنٍ مَّرِيدٍ ﴾ [الحج: ٣].

٩- ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَمَا لَيْسَ لَهُم بِهِۦ عِلْمٌ ۗ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾ [الحج: ٧١].

١٠- ﴿بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَهْوَآءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۖ فَمَن يَهْدِى مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ ۖ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾ [الروم: ٢٩].

١١- ﴿بَلْ كَذَّبُوا۟ بِمَا لَمْ يُحِيطُوا۟ بِعِلْمِهِۦ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [يونس: ٣٩].

والآيات السالفة الذكر تقدم لنا فنون الانحراف الناتج عن الجهل، والعجيب أنها جميعًا تتعلق بانحراف عقدي، مما يعني أن أكبر مضرة لغياب العلم هي الجهل بالله، والكفر به، والإشراك به.

والذي يتصرف بغير علم ويقع بالضرورة في تلك المزالق والمهالك يرتكب خطأين جسيمين:

الأول: في حق الله تعالى، فمع أنه هو الخالق الرازق... إلا أنه يُقابَل بالإنكار وجحود النعمة.

والثاني: في حق الإنسان نفسه، فهو بجهله بالله تعالى، وقوله على اللّه بغير علم إنما يَحْرِم نفسَه من فرصة عظيمة في التعلم، فلو أنه شغل نفسه بطلب العِلم لكان خيرًا له، ولو أنه فعل لعرفَ أن له ربًّا، وأن ربَّه مُنعِمٌ عليه ومتصفٌ بصفات الكمال، ومن صفاته أنه عليم، وأنه علام الغيوب، وأن العِلمَ علمُه يؤتيه من يشاء، وأن عليه أن يطلب العلم من صاحب العلم، ويجتهد في ذلك، ويستعين عليه بالدعاء...

والقاعدة التي نخلص إليها هنا أن التعلم ينبغي أن يكون قبل التكلم، وأن الجهلَ مُوقع في الخلل العقدي...ومن ثم لا بد من العِلم، ولا بد أن يكون هذا العِلم من الله تعالى، ولا بد أن تُسلك مسالكُه التي يُوفق الله تعالى فيها، أي: لا بد أن تُراعى شروطُ الطلب.

والسؤال الذي يواجهنا من جهة أخرى هو: هل الجهل وحده الضار؟ وبعبارة أخرى: أليس من العلم ما يضر؟

ويجيبنا القرآن الكريم أن حصول العلم ليس شرطًا في الحصانة، فالعِلم وحده غير كافٍ لتجنيب الإنسان الانحراف بما فيه الانحراف العقدي، ونماذج ذلك في القرآن الكريم كثيرة أيضًا[1] ، ولكن يكفينا منها أن أهل الكتاب لم يختلفوا إلا من بعد ما جاءهم العلم: ﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ۗ وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴾ [آل عمران: ١٩]، فعِلة تعطيلهم بركة العِلم اشتغال سلطان البغي، ومن مظاهره التباغض والتحاسد والتدابر وحب الزعامة..[2].

وعندما يتعلق الأمر بحظوظ الدنيا ينسلخ بعض العلماء عن عِلْمهم، وينقضّون على الدنيا انقضاض الجهال بل أشد، وقد يعمدون إلى حيلة أخرى هي الجمع بين العلم وتلك الحظوظ

---

(١) انظر: مثلًا الجاثية (٢٣)، والزمر (٤٩).

(٢) ن: الكشاف، (١/ ٣٧٤)، وتفسير ابن كثير، (١/ ٣٨٩).

بتوظيف العلم لذلك الغرض، ويضطرهم ذلك الحرص على الدنيا إلى ليِّ عُنق العلم، وإعطاء نصوصه معانٍ أخرى تناسب الهدف الذي يريدون تحقيقه.

فإذا ما تعددت المصالح تعدد المنسلخون من العِلم، وتعدد من يلوون عنقه، وتنشب بذلك معارك ظاهرها العلم وباطنها المصالح، وينشب اختلاف عريض دنيوي ذو واجهة علمية، فما قيمة العلم عندها، وقد تحول إلى وسيلة لتحقيق مصالح غير مشروعة؟! وكيف يكون العلم نافعًا؟! ومتى يكون حاجزًا عن الوقوع فيما وقع فيه هؤلاء؟! ولِـمَ لم يمنعهم؟! ذلك ما ينقلنا إلى واجهة أخرى من واجهات العِلْم.

إن وجود نماذج بشرية لها عِلم لكنها لا توظفه إلا في الوجهة التي تريدها، ليصير بذلك خادمًا لها، ولتحقيق مكاسب دنيوية بكل الوسائل، عندما يتحول العلم إلى ذلك يجعلنا نتساءل: أي علم هذا؟ وذنب من: العلم أم حامله؟ وتواجهنا حينها آيات كثيرة تخبرنا أن العِلم وحده لا يكفي، وأن العلم بغير عنصر آخر شكل في النموذج الذي أوردناه آنفًا البعد الغائب لا قيمة له؛ بل قد يكون وبالًا على الناس كلهم.

وذلك البعد الغائب هو ما نصطلح عليه بـ « أخلاقيات العلم » و « مسؤولية العلم »، فالعلم ليس مجرد معلومات تُحصَّل، وليس منهجًا في اكتساب المعرفة واستثمارها فقط؛ بل هو كذلك مسؤولية، وهو أخلاق، والذين يمارسون العلم دون أخلاق ودون

مسؤولية يوقعون أنفسهم وغيرهم في مزالق ومهالك، ولذلك نبَّه اللّـه تعالى رسوله ﷺ إلى هذه الحقيقة؛ فقال له: ﴿وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ [البقرة: ١٢٠]؛ لأن العلم ينبغي أن يكون مانعًا من اتباع أهواء القوم، ولا ينبغي إرضاؤهم على حساب العلم.

ومن أخلاقيات العلم الواردة في القرآن الكريم:

أولًا: التصرف بعلم:

قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾ [الإسراء: ٣٦]، فالأصل تحصيل العلم أولًا، فإذا ما حصل وجب التخلق بأخلاق العلم، فلا يقول إلا بعلم، ولا يتصرف إلا بعلم، ويكون ذلك كله بعيدًا عن المصلحة الذاتية، ودوس حقوق الناس، ولذلك قال تعالى بعد النهي عن أن يقفو المرء ما ليس له به علم: ﴿إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾ [الإسراء: ٣٦]، وهي مواطن العلم وآلياته، وبها يحصل العِلم، وعِلم الله تعالى بها يتضمن تنبيهًا لنا إلى أننا يجب أن نصونها عما يُغضبه، فهو بنا عليم، ولذلك لا بد أن نتنزه عما ليس لنا به علم، والقول بغير علم، وادعاء العلم، فمن آداب العلم: القول بعلم في علم بأخلاق العلم.

ثانيًا: التواضع للعلم:

مرد التواضع إلى حقيقتين:

الأولى: أننا إنما نستمد علمنا من الله تعالى كما رأينا من قبل، فوجب أن نتواضع.

والثانية: أن العِلم مراتب، وكل منا يحصل ما يبلغه جهده، ومن ثم فنحن في العلم درجات.

وإذا كان الأمر كذلك وجب أن يكون التواضع سمة الذي أوتي العلم، ذلك أنه مهما تعلم فإن عِلمه لا قيمة له أمام علم الله الذي منه نستمد العلم، كما قال تعالى: ﴿ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴾ [يوسف: ٧٦]، وأمام حقيقة العِلم الذي لا يمكن لمخلوق أن يحيط به: ﴿ وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [الإسراء: ٨٥]، فما دمنا قد أوتينا القليل من العلم فمن الأدب أن نتواضع على الأقل أمام العِلم، وأمام عظمة العلم، ويقتضي منا كوننا قد حصلنا علمًا أن نكون على علم بحجم ما حصلناه من مجموع العلم، أي: أن نعرف قدرنا في هذا الكون، وعندما نكون على علم بقدر ما علمناه ووزن ذلك بميزان علم الكون لا يكون أمامنا إلا أن نخجل من أنفسنا، أي: أن نتواضع.

وتواضعنا ليس فقط لأن العلم الذي حصلناه قليل من كثير، وإنما هو لسبب ثان هو أنه مقدمة لمزيد من العلم، فالذي يقول: علمت، يكون بذلك قد حكم على نفسه بوقف التعلم، والتفرغ للتعالي على الناس، والنظر إليهم من أعلى، بينما الذي يكتشف أن علمه لا شيء في ميزان علم الله، ثم في ميزان الكون يجدّ في الطلب، ويظل طالب علم.

ثالثًا: العمل بالعلم:

لا قيمة للعلم دون عمل به، إذ العلم إنما وُجد أصلًا ليتصرف الإنسان بعلم كما رأينا سابقًا، والذين لا يُحوِّلون العلم إلى ممارسة يرتكبون جناية في حق العلم وفي حق الناس، هؤلاء يريدون أن يبقى العلم امتيازًا لنخبة ما، وأن يكون محجوبًا عن الناس، ولذلك يقدم لنا القرآن الكريم نماذج عدة، نكتفي منها بنموذجين في هذا المعنى:

أما النموذج الأول فهو إبراهيم عليه السلام: فقد قال الله تعالى عنه: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ ۚ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٤١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْئًا ﴿٤٢﴾ يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا ﴿٤٣﴾ يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ ۖ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا ﴿٤٤﴾ يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا ﴿٤٥﴾ قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ ۖ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ ۖ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا ﴿٤٦﴾ قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ ۖ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي ۖ إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا ﴿٤٧﴾ وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُو رَبِّي عَسَىٰ أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا﴾ [مريم: ٤١ - ٤٨]، **وكلامه فيه فوائد قيمة تتعلق بالعلم:**

أولها: أنه لا دعوة بغير علم، فالشرط تحصيل العلم أولًا، ولذلك قال إبراهيم عليه السلام لأبيه: ﴿إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ﴾ [مريم: ٤٣].

وثانيها: البصر بحجم العلم المحصل، وحجم العلم السائد، ولذلك قال إبراهيم: ﴿إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ﴾ [مريم: ٤٣].

وثالثها: أنه لا قيمة للعلم بلا عمل، فوجب أن يتحول العلم إلى ممارسة لينتفع به الناس، وهذا ما فعله إبراهيم عليه السلام مع أبيه في هذا النص، فبمجرد أن جاءه العلم دعا أباه: ﴿ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي قَدۡ جَآءَنِي مِنَ ٱلۡعِلۡمِ مَا لَمۡ يَأۡتِكَ فَٱتَّبِعۡنِيٓ أَهۡدِكَ صِرَٰطٗا سَوِيّٗا ﴾ [مريم: ٤٣].

ورابعها: أنه لا قيمة لعلم وعمل بلا أخلاق؛ ولذلك قال إبراهيم: ﴿ يَٰٓأَبَتِ ﴾، وهو يعلم أنه مشرك، فلم يمنعه شركه من حسن معاملته، والقول اللين معه.

وخامسها: أنه لا علم بدون فهم؛ ولذلك كان منهج إبراهيم عليه السلام في غاية الدقة والتنظيم: فقد بدأ باستفهام استنكاري، ثم أتبعه ببيان علة تكلُّمه في الموضوع، وهي حصول العلم، ثم أضاف إلى ذلك مزية زائدة تجعل ما معه من حق خلاف ما مع غيره، وهي حصوله على علم زائد: ﴿ جَآءَنِي مِنَ ٱلۡعِلۡمِ مَا لَمۡ يَأۡتِكَ ﴾ [مريم: ٤٣]، وتلك المزية جعلته يرتقي إلى مرتبة نهي أبيه عن عبادة الشيطان، فلما كان النهي فعل أمر، وكان من الممكن أن يعتبره أبوه سوء أدب، أتبع إبراهيم ذلك بتحويل لمستوى الخطاب، فجعل خطابه عاطفيًّا يخاطب القلب والمشاعر بعد أن كان من قبل يخاطب العقل، وذلك بإظهار الخوف على أبيه من عذاب اللّـه.

وسادسها: أن امتناع الآخر عن التنفيذ ليس مبررًا لننسلخ من العلم فجأة، وتتزيًا بزي الجهلة؛ ولذلك لما قال أبو إبراهيم متحديًا ابنه، وواضعا حدًّا لمحاولاته في ثنيه عن عبادة الأصنام:

﴿ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِي يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَٱهْجُرْنِي مَلِيًّا ﴾ [مريم:٤٦]؛ رد إبراهيم ردًّا مغرقًا في العاطفية: ﴿ قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّيٓ إِنَّهُۥ كَانَ بِي حَفِيًّا ﴿٤٧﴾ وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدْعُوا۟ رَبِّي عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّي شَقِيًّا ﴾ [مريم: ٤٧ ، ٤٨]، فإذا كان الأب يتعصب لرأيه إلى درجة أن يخير ابنه بين أن يترك ما جاءه من العلم أو أن يُرجم ويهاجر فإبراهيم لن يتخلى عن علمه، ولكنه في الوقت نفسه لن يكون مثل أبيه؛ بل سيخرج ما دامت هذه رغبته، وفي الوقت نفسه سيستغفر له، إنه ما زال يقر أنه والده؛ ولذلك لن يفكر فيه بسوء، وسيستعين عليهم وما يعبدون بالدعاء.

وأما النموذج الثاني فهو أناس عاصروا قارون، أوتوا العلم وكان لهم موقف مشرف: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ ﴾ [القصص: ٨٠]، فمع أن الزمن زمن فتنة المال وسطوته إلا أنهم لم يسيروا بسير عصرهم، ويتَّسِموا بسمته، ولم يمنعهم وجود نخبة مالية متعفنة طاغية ضالة مضلة أن يكونوا طاهرين، وأن يتمسكوا بالحق، والأكثر من ذلك أن يؤدوا دورهم.

وهؤلاء سمتهم الأولى أنهم أوتوا العلم، ولمراعاتهم أخلاق العلم، وطاعتهم لله تعالى فيه تقربًا منهم إليه به حوَّلوا ذلك العلم إلى ممارسة، فلم يكتُموا الحق في لحظة حرجة كان الحق في حاجة إلى من يسجل شهادة على العصر، وقد كانوا في مستوى

الشهادة، ولم يُفْتَنوا بخطاب فئة استلبتها الثروة وفتنة المال إلى درجة أن تعتبر الحظ العظيم هو ما لدى قارون، وكيف تُفتن وهي قد أوتيت العلم، وأوتيت الخشية؟! ومن يجمع العلم والخشية يؤت خيرًا كثيرًا، ومن الخير أنهم ثبتوا، ودعوا إلى عدم الافتتان: ﴿ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ ﴾ [القصص: ٨٠].

رابعًا: طلب العلم من العليم:

رأينا سابقًا عند حديثنا عن « العليم » أن الله تعالى هو مصدر علمنا، ولذلك فمن الأدب أن نطلب العلم منه، وأن يكون ما نطلبه مما يرضاه وبالكيفية التي يرضاها، ولذلك قال تعالى: ﴿ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴾ [طه: ١١٤] ، ومع أنه دعاء إلا أن فيه أدبًا ينبغي أن يَتَحلَّى به طالبُ العلم هو أن يتوجه في كل حين إلى الله تعالى بخالص دعائه ليزيده علمًا، وهذا الطلب ليس طلب حجم فقط؛ بل هو أصلًا ممارسة للعلم؛ لأن من أخلاق العلم التواضع والتذلل بين يدي العليم، وفي الدعاء فائدتان أخريان:

الأولى: أن هذا الداعي يدعو الله ﷻ الزيادة، مما يعني أنه مدرك أن ما حصله من علمٍ قليلٌ قليلٌ، وأن هناك علمًا كثيرًا فاته، ومن ثم لجأ إلى الله ﷻ متضرعًا إليه طالبًا منه المزيد.

والثانية: أنه يعلم أنه مهما زاده اللّـه من العلم فسيظل ذلك العلم المحصَّل قليلًا، ولذلك جُعل العلم نكرة، فقال:﴿ زِدْنِي عِلْمًا ﴾ [طه: ١١٤]، والزيادة زيادة من العلم، وليست زيادة كل العلم.

والحاصل مما سبق أن العلم لا يكون إلا بالتعلم، ولا يكون إلا من مصدره، وبآدابه، ثم بممارسته.

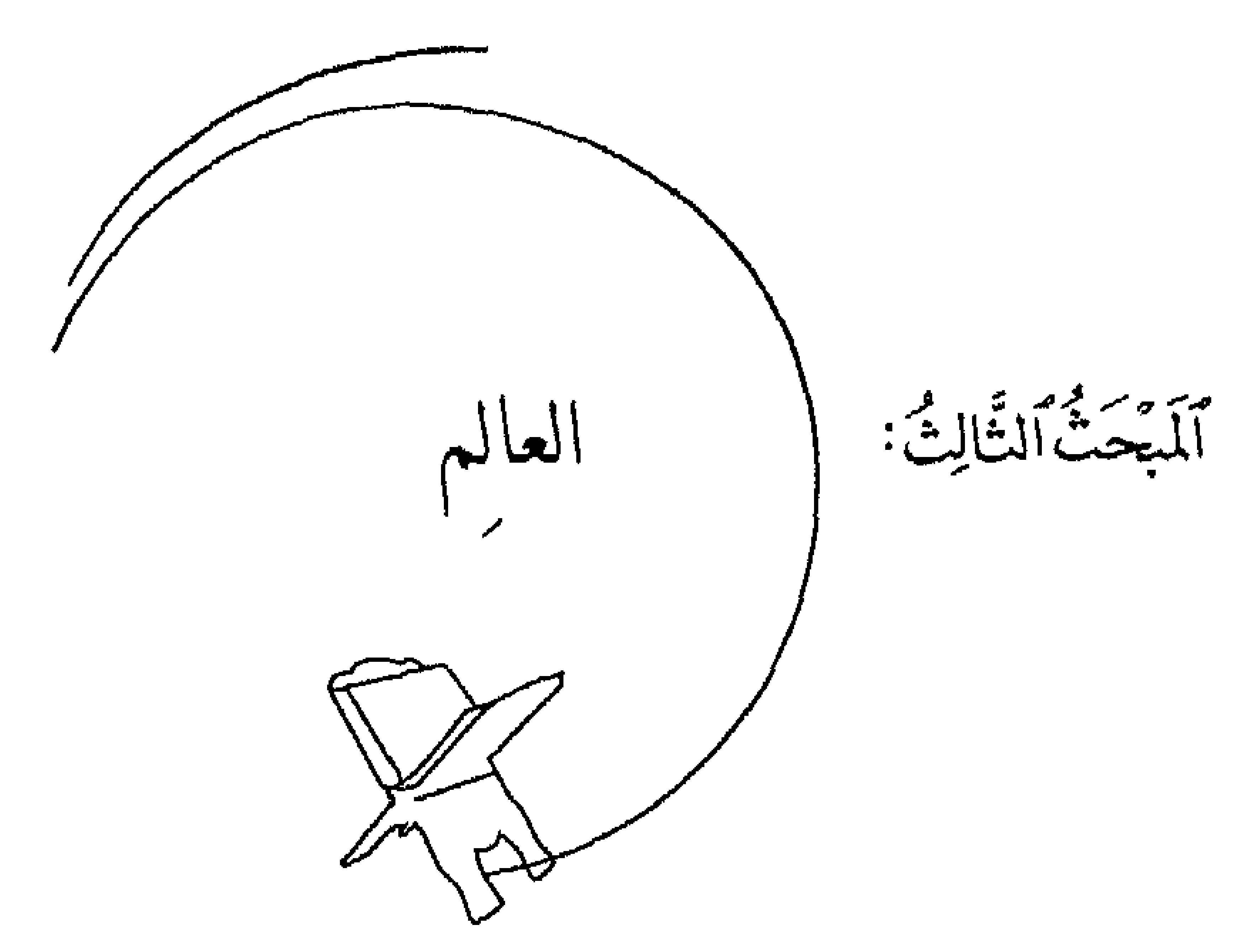
وإذا ما تحقق ذلك أمكننا أن نتحدث عن علم متميز، سمته الكبرى أنه شهادة، وأن صاحبه شاهد، وأعظم شهادةٍ شهادةُ التوحيد، وهذه سمة جعلت الإنسان يُورَد في سياق إيماني راق، وفي عبارة هي أعظم وسام لمن أوتي العلم بشروطه التي ذكرنا بعضها آنفًا، فقد قال تعالى: ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلۡعِلۡمِ قَآئِمَۢا بِٱلۡقِسۡطِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴾ [آل عمران: ١٨]، فقد أورد اللَّـه تعالى شهادته في الأول، ثم أتبعها بشهادة الملائكة المعصومين، وأتبعها مباشرة بشهادة أولي العلم، وكفى بها مرتبة، وكفى بها شهادة، وغني عن البيان أن الأنبياء في مقدمة أولي العلم؛ لأنهم كانوا وسيلة نشر العلم في الأرض، وهم الذين تحملوا الأذى من أجل نشر العلم، وإن كان السياق يشملهم ويشمل غيرهم لإفادة معنى عام هو أن وحدانية اللَّـه تعالى لها شهود من بني آدم.

وفي سياق قريب نقرأ قوله تعالى: ﴿ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَسۡتَ مُرۡسَلٗاۚ قُلۡ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدَۢا بَيۡنِي وَبَيۡنَكُمۡ وَمَنۡ عِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلۡكِتَٰبِ ﴾ [الرعد: ٤٣]، وفيه أن محمدًا ﷺ يذكر شاهدين على صحة رسالته: اللَّـه تعالى، ثم من عنده علم الكتاب؛ ولم يقل أهل الكتاب؛ لأن مِن هؤلاء ما لا علم لهم بالكتاب، أو علمهم محدود به، فالشهود من البشر الذين لهم علم الكتاب؛ ولذلك قال

ابن كثير:« والصحيح في هذا أن « ومن عنده » اسم جنس يشمل علماء أهل الكتاب الذين صفة محمد ﷺ ونعته في كتبهم المتقدمة من بشارات الأنبياء به»[1]، فهؤلاء شهود بما معهم من الحجة المكتوبة.

***

(١) تفسير ابن كثير، (٢/ ٥٤٢).



ٱلْمَبْحَثُ ٱلثَّالِثُ: العالم

لم يزد ورود لفظ « عالِم » في القرآن الكريم مفردًا وجمعًا عن (٢٠) مرة[1]، خُص منها بالمفرد مقرونًا بالغيب « عالم الغيب » (١٣) مرة، ولم يَرِد اللفظ مفردًا دالًّا على من أوتي العلم من البشر قط، وإنما استعمل في ذلك جمع المذكر السالم « عالمون، عالمين » (٥) مرات، وجمع التكسير « علماء » مرتين.

هناك آيات جامعة تقدم فوائد بخصوص العلماء تحتاج وقفات، وسنتناول ذلك من خلال محورين: يتناول الأول العلماء العاقلين، ويتناول الثاني العلماء الربانيين.

أولًا: العلماء العاقلون:

تتناول ثلاث آيات هذا النوع:

في الأولى: يقول الله تعالى: ﴿ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَـٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَـٰلِمُونَ﴾ [العنكبوت:٤٣]، فهم أولًا عقلاء؛

---

(١) ن. المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، (ص ٦٠٣، ٦٠٤).

لأن الصيغة الصرفية هي صيغة جمع المذكر السالم، وهؤلاء لما كانوا كذلك صاروا الفئة الوحيدة التي تعقل الأمثال التي يضربها اللَّـه تعالى، وقد استعمل اللَّـه تعالى أسلوب الحصر لتأكيد تلك الحقيقة، فعقْلُ الأمثال إذًا سمة العالِمين.

وإنما مُيزوا بتلك السمة لأن الأمثال التي يضربها اللَّـه تعالى تحتاج تأملًا وتدبرًا وفهمًا وتعميق نظر، وهذا يستطيعه بالمقام الأول العالِـمون قبل غيرهم.

ومن الفوائد بهذا الشأن أن عمرو بن العاص قال: « عقلت عن رسول اللَّـه ﷺ ألف مثل »[1]، فهذا يعني أن الرسول ﷺ كان يضرب الأمثال بكثرة ليعقلها العالِـمون.

وفي الآية أيضًا حض على التعلم؛ لأنه مادامت هناك أمثال، وهناك دعوة لعقلها فإن الأمر يحتاج تعلمًا لفهمها والاستفادة منها.

وفي الآية الثانية: يقول تعالى: ﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَـٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّلْعَـٰلِمِينَ ﴾ [الروم: ٢٢]، فالسماوات والأرض وتعدد الألسنة والألوان البشرية كل ذلك التنوع فيه من الأدلة الكثير على الخالق سبحانه، وتلك آيات ينبغي أن يتأملها العالِمون؛ لأنها تقودهم إلى عجائب الخلق وأسراره، فإذا ما وصلوا إلى ذلك عرفوا تجليات القدرة الإلهية في الكون بمختلف عناصره، وهذا أمر

---

(١) مسند أحمد، حديث رقم (١٧٧٣٣)، وأعقبه محققه أحمد حمزة الزين بقوله: « إسناده حسن، لأجل ابن لهيعة »، (١٣/ ٥٠٥).

يحتاج إعمالًا للعقل، وهو في الوقت نفسه دعوة لتشغيل العلم من أجل حقائق التوحيد.

وفي الآية الثالثة: يقول سبحانه: ﴿ أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً أَن يَعْلَمَهُۥ عُلَمَٰٓؤُا۟ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾ [الشعراء: ١٩٧]، وهذه الآية تختلف عن سابقتيها في كونها تستعمل جمع التكسير « علماء »، وهي تشير إلى موقف سجله مجموعة من « علماء بني إسرائيل » بقولهم كلمة الحق، ومعرفتهم الحق، واتباعهم له: « والمراد العدول منهم، الذين يعترفون بما في أيديهم من صفة محمد ﷺ ومبعثه وأمته، كما أخبر بذلك من آمن منهم، كعبد الله بن سلام وسلمان الفارسي عمن أدركه منهم وشاكلهم »[1]، فإيمان هؤلاء وتعرفهم على محمد ﷺ، وكونه نبيًّا، وما جاء به وحيًا يوحى، فيه آية لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد، وموقفهم ذاك دليل لصالح الإسلام وضد المتخاذلين المتعنتين الذين يكتمون الحق وهم يعلمون، والذين يجهلون الحق أصلًا.

والملاحظ أن اللّـه تعالى لم يستعمل لفظ « عالم » إلا مرتين: مرة في الآية السابقة وقد قيده ببني إسرائيل: « علماء بني سرائيل »، ومرة أخرى هي موضوع حديثنا في المحور اللاحق.

والموقف المشرف لهؤلاء جعلهم يستحقون صفة علماء؛ لأنهم جمعوا بين العلم والعمل به، واحترموا أخلاق العلم فجعلوا الحق وُكدهم.

---

(١) تفسير ابن كثير، (٣/ ٣٦٤).

وخلاصة الآيات الثلاث السالفة الذكر أن العلم وسيلة قوم في التعرف على اللّـه تعالى، وهم يبذلون في ذلك جهدهم، وسواء أتعلق الأمر بعقل الأمثال، أم بالتفكر في الآيات... فإن الأمر سيان، إذ الرابط هو جعل العلم خادمًا لحقيقة كلية هي الإيمان بالله، والإيمان بوحيه الذي أنزله على أنبيائه.

ثانيًا: العلماء الربانيون:

يقول الله تعالى: ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴾ [فاطر: ٢٨]، وفي الآية الكريمة أمور:

أولها: حصر اللّـه تعالى الخشية في العلماء، وهذا يعني أن خشيتهم إنما هي بسبب علمهم.

وثانيها: أن هؤلاء جمعوا بين العلم وأخلاقياته، فهم علماء لكنهم في الوقت نفسه يجلُّون ربهم.

وثالثها: أن الخشية شديدة الارتباط بالعلم، وحيثما كان علم كانت خشية.

وتتضمن الآية السابقة توجيهات ضمنية لنا:

منها: أننا ينبغي أن نطلب العلم، فلو لم يكن له من فائدة إلا أنه سبب لخشية الله تعالى لكفى به سببًا.

ومنها: أن حصول العلم ينبغي أن لا يصيبنا بالغرور؛ بل ينبغي أن يزيد من تواضعنا، والتواضع من عناصر الخشية.

ومنها: أن العلم والخشية يشكلان وجهين لعملة واحدة،

فالمرء يكون عالمًا ما خشي الله، وما دام يخشى الله، فإن الله تعالى يزيده العلم؛ ولذلك قال تعالى: ﴿ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَـٰتٍ ﴾ [المجادلة: ١١]، فهؤلاء قد جمعوا بين الإيمان والعلم، وحيثما كان الإيمان تكون الخشية.

ومنها: أن العالم ترتفع درجته على قدر جمعه بين العلم والخشية، أي: على قدر ما حَصَّلَ العلم بشروطه، وتكفيه شهادة الله تعالى له بكونه من يخشى الله، فإذا أضفنا إلى ذلك الدرجات التي يرفعه إليها، عَلِمْنا أنه لا بد أن يكون العلم مقرونًا بالأخلاق، أي لا بد من شروط العلم.

* * *



خلاصة الفصل الرابع

نَخْلُص من هذا الفصل إلى أمور:

١- تنوع مادة « علم » وغزارتها في القرآن الكريم.

٢- ينبغي أن يكون الوحي مركز المسألة العلمية في جهودنا من أجل إقامة أمة العلم.

٣- العلم من الله تعالى العليم؛ لذلك ينبغي أن نلجأ إليه، ونستعين به في الاستزادة منه.

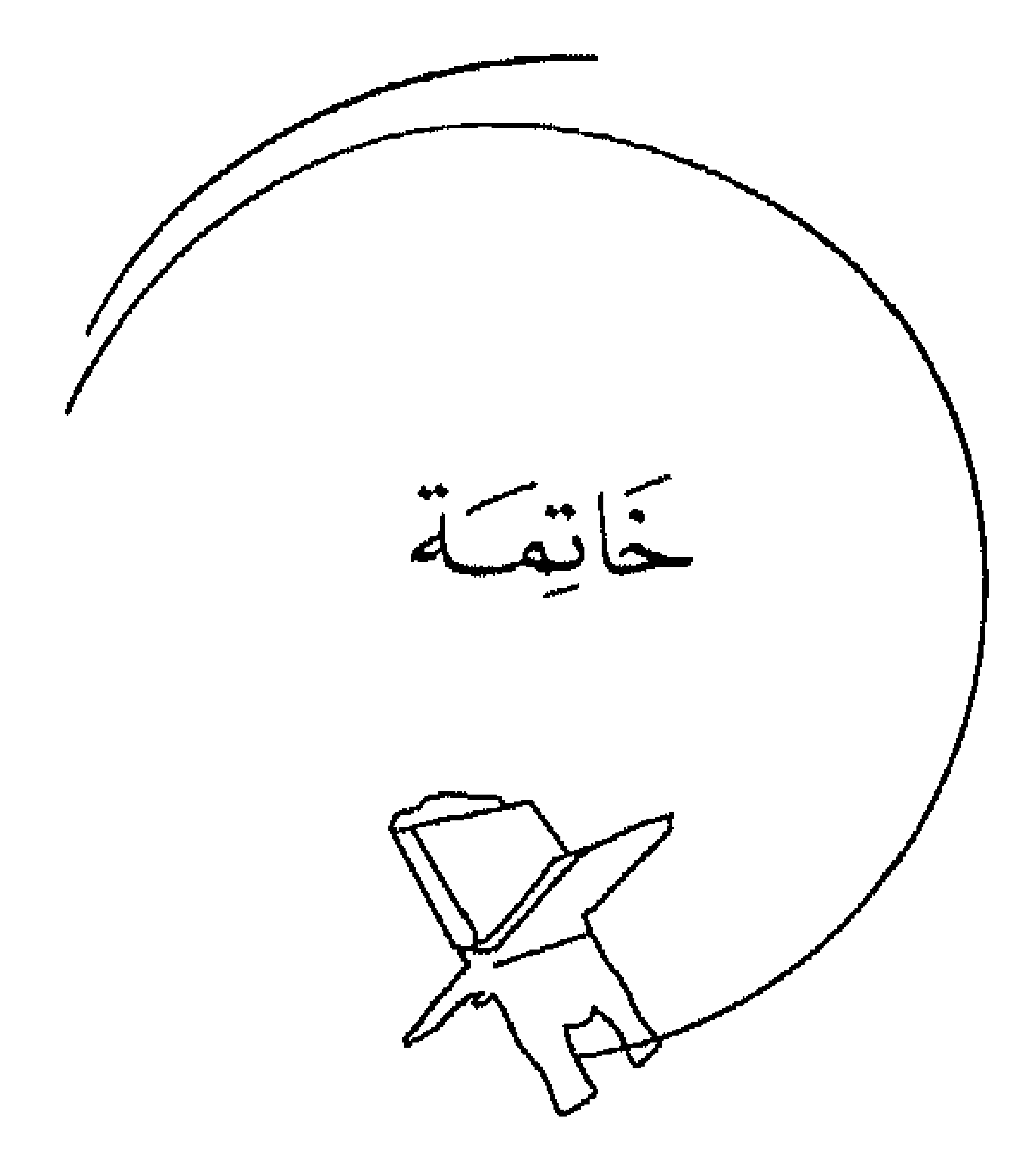
٤- للعلم أخلاق لا بد أن تراعى.

٥- لا يكون العلم إلا بالتعلم، ولا يكون إلا من مصدره، وبآدابه، ثم بممارسته.

٦- العلم وسيلة التعرف على الله تعالى والإيمان به.

٧- العلم والخشية يشكلان وجهين لعملة واحدة.

* * *



خَاتِمَة

لما كان بيننا وبين أمة العلم حجاب، وكان مجتمع المعرفة الفريضة الغائبة في العالم الإسلامي، احتجنا أن نراجع الدرس الأول الذي يعلمنا إياه القرآن الكريم في الكيفية التي حوَّل بها قومًا - سمتهم الغالبة أنهم أميون - إلى أُمَّةِ علمٍ أسست حضارة لا نظير لها على وجه الأرض، والسؤال الذي يواجه الباحث هو: كيف حدث ذلك؟ كيف أمكن إقامة أُمّة علم أسست حضارة غير الحضارات الأخرى؟ ماذا فعل الإسلام ليتحول هؤلاء الناس من واقع إلى آخر مخالف للأول كل المخالفة؟

تلك الأسئلة قادتنا إلى البحث المُلِح عن إجابات شافية، وقد اقتصرنا في محاولتنا هذه على المصدر القرآني لعل الله ﷻ ييسر لنا أو لغيرنا الإجابة من المصدر النبوي لنكونَ على بصيرة تامة من سر تلك الروح التي سرتْ في القوم.

لقد قادنا هذا البحث إلى الوقوف على أمور متميزة فُعِّلت

زمن البعثة وبعده بشكل جدِّي، فأثمرت قرونًا من التميز العلمي، والعطاء المعرفي، كمًّا ونوعًا، وفي مقدمتها:

١- القراءة، وقراءة القرآن الكريم:

اكتست القراءة أهميتها باعتبارها أولوية الأولويات من ارتباطها بالقرآن الكريم، ولقد أتى على الناس زمان لم يكن أحدهم يقرأ إلا من كتاب الله تعالى وفيه، ولذلك رفض الكثير من الصحابة كتابة الحديث النبوي ليبقى القرآن الكريم في مركز اهتمامات المسلمين، وأثمرت هذه المركزية فهمًا لكتاب الله هو خير الفهوم، وما زلنا إلى اليوم نعتبر فهمهم مقدمًا على فهمنا، وليس ذلك غريبًا عن قوم فرَّغوا أنفسهم لكتاب الله تعالى فجاءهم العلم من حيث يشعرون ومن حيث لا يشعرون، وهذه الحقيقة تقدم لنا درسًا قويًّا هو أنه إذا كانت القراءة ينبغي أن تكون لها الأولوية، فإن القرآن الكريم ينبغي أن يكون أول مقروء، وأعظمه، وأكثره.

٢- القرآن الكريم مركز الحركة العلمية:

ظهر ذلك بجلاء في زمن البعثة، وفي زمن الخلفاء الراشدين، ثم استمر مدة، وحتى عندما نشطت حركة التأليف وتعددت العلوم ظل القرآن الكريم في المركز لسببين: كون كثير من تلك العلوم متعلقة به تعلقًا مباشرًا، كالتفسير، وعلم القراءة، وكون معظم العلوم الأخرى إنما نشأت أصلًا لخدمته، وخدمة الحديث الشريف، والدرس هنا هو أننا ينبغي أن نعيد القرآن الكريم إلى مركز حركتنا العلمية، بعد أن نعيده أصلًا إلى حياتنا اليومية.

٣- العلم أولًا:

ومعنى ذلك أنه لا بد من إعطاء العلم الأولوية؛ لأن العلم هو الذي يضمن لنا معرفةً حقيقية بربنا، ويضمن لنا أن نَعْبده حقَّ العبادة، مثلما يضمن لنا إحاطةً بقوانين التسخير للكون، فقد خلق الله هذا الكون وسخره لنا، ولكن الاستفادة منه لا يمكن أن تكون مع الجهل، والأمم التي تستمتع بخيرات الكون الآن في ظِل غيابنا لَم تفعل ذلك إلا بِعلم، فالعِلم طريقُنا نحو الاستفادة مما خلقه الله من أجلنا، مثلما هو طريقنا للزيادة في درجة قربنا من ربنا.

٤- العلمُ المنهجُ:

المنهج آلية خطيرة من الآليات المعطلة في واقعنا، فقد قضينا زمنًا ونحن نجرب مناهج الشرق والغرب دون جدوى، فلا مناهج الشرق نفعت ولا مناهج الغرب، والنتيجة أن نشأت أجيال من بني جلدتنا لسانهم لساننا، ولكن قلوبهم شتى، وليس يجمع بينها سوى إبعاد كتاب اللّـه وسنة نبيه ﷺ عن واقع المسلمين، وفرض إقامة جبرية عليهما في الرفوف والمتاحف.

هذا والقرآن الكريم منذ أول ما نزل منه نبهنا إلى مشكلة المنهج، ووجهنا نحو حسمها، فقد قال تعالى: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ﴾ [العلق: ١]، محددًا الموضوع الذي هو القراءة باعتبارها مقدمة العلم، ومنهجه المتمثل في أنه ينبغي أن يكون باسم الله، ولا يكون باسم اللّـه إلا إذا كان وَفْق ما أراده اللّـه، ومن ثم فلا منهج

يتعارض مع حقيقة من حقائق الإسلام، ولا منهج يَصْلح لنا لنَجْمع بين خَير الدارين غير المنهج الذي اختاره الله لنا.

٥- العلمُ الأخلاقُ:

معنى ذلك أن سِمة العِلم أن يكون مُخَلقًا، ومن ثم كان العلماء الفئة التي تخشى الله؛ ولذلك قالوا قديمًا: « إنما العلم الخشية »، لتأكيد تلك الحقيقة، والمفهوم من ذلك أنه قد يحصل علم دون خشية؛ لكن ليس هو العلم الذي أراده الله تعالى لنا، وليس هو العلم الذي رفع سلفنا، وميزهم عن غيرهم، وإنما العلم المُخَلَّق هو العلم المتجه أولًا بالعبادة نحو الله تعالى، ثم وفق ما أراده سبحانه، فهو عبادة في العلم بعلم؛ ولذلك كان علمًا منسجمًا مع الكون في توجهه العجيب بالتسبيح نحو خالقه.

وعندما نتأمل هذه الحقيقة ونقارنها بما وصلته البشرية كلها من فصل بين العلم والأخلاق وما نتج عن ذلك، ومن ربط للعلم بالشهادات والوظائف والمصالح الدنيوية - كما في العالم الإسلامي - ندرك حَجْم الفرق بين منهجين وحضارتين، ونُدرك أيضًا ما الذي ينقص هذا العالم، وما الرسالة التي لا بد أن نؤديها لنكون شاهدين على العصر.

٦- العلمُ الانفتاحُ:

يعلمنا القرآن الكريم أن ننفتح على علوم العصر ونغربلها، ثم نُخضع ما وافق ديننا لتصوره للكون والحياة والناس، وقد فعل القرآن الكريم ذلك مع علوم ومصادر للمعرفة كانت سائدة

ومتداولة زمن نزوله: كالشِّعر، والقصة، وكتب أهل الكتاب، فوجه الشِّعرَ والقصةَ وحدد ضوابطهما، وبين موقفه من كتب أهل الكتاب، وما فيها من حق وباطل.

إن القرآن الكريم وفق هذا المحور يجعلنا أمام أمرين: يتعلق أولهما بما تضمنه هو من العلوم والمعارف، وما أشار إليه مما لا بد لنا من الاستفادة منه، ويتعلق ثانيهما بما هو متداول في عصرنا، ويعلمنا كيف نندمج في هذا العصر دون أن نفقد هويتنا، وكيف نتعامل مع مفرداته على بصيرة.

تلك ستة كاملة لمن أراد أن يتبصر اختصرناها اختصارًا، ونحن نعلم أن كل واحدة منها باب عظيم، ولكن يكفي في هذه العجالة من القلادة ما أحاط بالعنق كما قيل قديمًا ويوم نعي جيدًا موقعنا من العصر، والدور الذي لا مفر لنا من أدائه، وأن سمة أمتنا ووظيفتها الكبرى هي الشهادة على الناس، وأن شهادتنا لا يمكن إلا أن تكون بعلم، ولا يكون العلم إلا علمًا باللّـه وأمره، ثم علمًا تسخيريًّا يخدم ذينك العلمين، وأننا إن لم نفعل تكن فتنة في الأرض، وفساد كبير، ومسؤولية جسيمة يوم العرض.

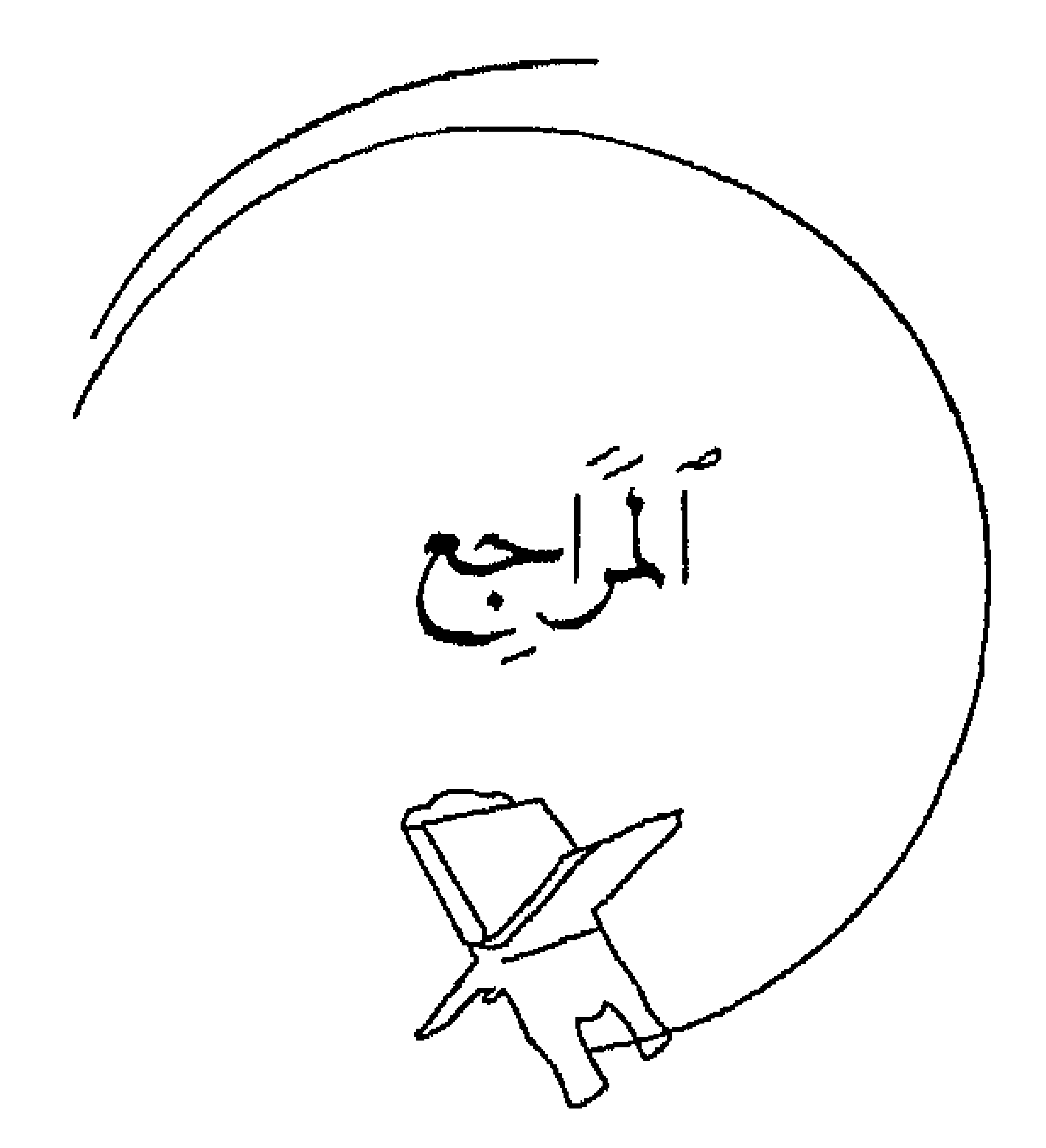
يومئذ يفرح المؤمنون.

ويقولون: متى هو؟

قل: عسى أن يكون قريبًا،

إنهم يرونه بعيدًا، ونراه قريبًا.

* * *



١- الإتقان في علوم القرآن، جلال الدين السيوطي، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، مكتبة دار التراث، القاهرة، دون طبعة أو تاريخ.

٢- أرقام تحكي العالم، محمد صادق مكي، كتاب البيان، ط.١ (١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦م).

٣- الإستراتيجية الثقافية للعالم الإسلامي، منشورات المنظمة الإسلامية للتربية والثقافة والعلوم إيسيسكو، ط.٢ (١٤١٩هـ - ١٩٩٨م).

٤- إعجاز القرآن، أبو بكر الباقلاني، تحقيق: أحمد صقر، دار المعارف، ط. ٥.

٥- البرهان في علوم القرآن، بدر الدين الزركشي، تحقيق: أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، بيروت، دون طبعة أو تاريخ.

٦- تفسير القرآن العظيم، ابن كثير الدمشقي، دار الفكر، بيروت. ط.١، (١٤١٧هـ - ١٩٩٧ م).

٧- تقرير التنمية الإنسانية العربية للعام (٢٠٠٣م) : نحو إقامة مجتمع المعرفة، برنامج الأمم المتحدة الإنمائي، الصندوق العربي للإنماء الاقتصادي والاجتماعي، ط، (٢٠٠٣م).

٨- جامع البيان عن تأويل آي القرآن، أبو جعفر محمد بن جرير الطبري، دار الفكر، بيروت، ط. (١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م).

٩- الحوار منهج حياة، الحسين زروق، دار السلام، القاهرة، ط.١(٢٠٠٧ م).

١٠- دلائل الإعجاز، عبد القاهر الجرجاني، قرأه وعلق عليه: محمود محمد شاكر، مطبعة المدني، القاهرة ودار المدني، جدة. ط.٣، (١٤١٣ هـ - ١٩٩٢م).

١١- سنن أبي داود، راجعه على عدة نسخ وضبط أحاديثه وعلق على حواشيه: محمد محيي الدين عبد الحميد، دار إحياء السنة النبوية، دون طبعة أو تاريخ.

١٢- سنن ابن ماجه، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار الفكر، بيروت.

١٣- السيرة النبوية، ابن هشام المعافري، تحقيق وتخريج وفهرسة: جمال ثابت، ومحمد محمود وسيد إبراهيم، دار الحديث، القاهرة، ط. ٢، (١٤١٩هـ - ١٩٩٨م).

١٤- شروط الانتفاع بالقرآن الكريم، د. الشاهد البوشيخي، منشورات المحجة، ط.١، (١٤٢٢هـ - ٢٠٠١ م).

١٥- الشعر والشعراء، ابن قتيبة، تحقيق وشرح: أحمد محمود شاكر، دار الحديث، القاهرة، ط.٢، (١٤١٨هـ - ١٩٩٨م).

١٦- صحيح البخاري، أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري، تحقيق: د. صدقي جميل العطار، دار الفكر، بيروت، ط .١، (١٤٢١هـ ٢٠٠٠م).

١٧- صحيح السيرة النبوية، إبراهيم العلي، دار النفائس، ط. ٦، (١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢م).

١٨- صحيح مسلم بشرح الإمام أبي زكرياء يحيى بن شرف النووي، ضبط وتوثيق: صدقي جميل العطار، دار الفكر، بيروت، ط. (١٤١٥هـ - ١٩٩٥ م).

١٩- الصحيح من أسباب النزول، عصام بن عبد المحسن الحميدان، دار الذخائر ومؤسسة الريان، ط.١، (١٤٢٠ هـ - ١٩٩٩م).

٢٠- طبقات فحول الشعراء، محمد بن سلام الجمحي، قرأه وشرحه: محمود محمد شاكر، مطبعة المدني، القاهرة، ط. ١ .

٢١- العالم في عام: رصد رقمي لأحوال العالم، حسن قطامش، منشورات مجلة البيان، ط. (١٤٢٣هـ- ٢٠٠٢م).

٢٢- عولمة العولمة، المهدي المنجرة، منشورات الزمن، الرباط، ط.سبتمبر(٢٠٠٠ م).

٢٣- فضائل القرآن، ابن كثير، تحقيق: د.محمد إبراهيم البنا، دار القبلة للثقافة الإسلامية بجدة ومؤسسة علوم القرآن ببيروت، ط. ١، (١٤٠٨هـ - ١٩٨٨ م).

٢٤- فضل علم السلف على الخلف، ابن رجب الحنبلي، حققه وشرحه وعلق عليه: مروان العطية، دار الهجرة، بيروت، ط. ١، (١٤٠٩هـ - ١٩٨٩ م).

٢٥- فقه اللغة وأسرار العربية، أبو منصور الثعالبي، دراسة وتحقيق: مجدي فتحي السيد، المكتبة التوفيقية، القاهرة، دون رقم الطبعة أو تاريخ الطبع.

٢٦- فنون الأفنان في عيون علوم القرآن، ابن الجوزي، تحقيق وتعليق: صلاح بن فتحي هلل، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، ط. ١، (١٤٢٢ هـ - ٢٠٠١ م).

٢٧- القراءة ضرورة حضارية، الحسين زروق، مجلة الوعي الإسلامي، ع(٤٨٤)، (ذو الحجة ١٤٢٦هـ) .

٢٨- القرآن الكريم روح الأمة الإسلامية، د. الشاهد البوشيخي، منشورات المحجة، ط. ٤، (١٤٢٢ هـ - ٢٠٠١ م).

٢٩- كتابة القرآن الكريم في العهد المكي، عبد الرحمن عمر محمد إسبينداري، منشورات المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة، ط. (١٤٢٣ هـ - ٢٠٠٢م).

٣٠- الكتب المقدسة في ميزان التوثيق، عبد الوهاب عبد السلام طويلة، دار السلام، القاهرة، ط. ١، (١٤١٠ هـ - ١٩٩٠ م).

٣١- الكشاف، الزمخشري، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط. ١، (١٤١٧هـ - ١٩٩٧ م).

٣٢- لباب النقول في أسباب النزول، للسيوطي، خرج أحاديثه: أبو عبد الله محمود بن الجميل. مكتبة الصفا، القاهرة، ط. ١ ، (١٤٢٣ هـ - ٢٠٠٢ م).

٣٣- لسان العرب، ابن منظور، دار صادر، بيروت، ط. ٣ (١٤١٤ هـ - ١٩٩٤ م).

٣٤- مباحث في علوم القرآن، د. صبحي الصالح، دار العلم للملايين، بيروت، ط. ١٥، (١٩٨٣ م).

٣٥- المستدرك على الصحيحين، الحاكم، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، ط. (١٤١١ هـ - ١٩٩٠م).

٣٦- المسند، أحمد بن حنبل، شرحه وصنع فهارسه: أحمد محمد شاكر، وحمزة أحمد الزين، دار الحديث. القاهرة، ط.١، (١٤١٦ هـ - ١٩٩٥ م).

٣٧- مصادر الشعر الجاهلي وقيمتها التاريخية، د. ناصر الدين الأسد، دار المعارف، القاهرة، ط. ٥.

٣٨- معترك الأقران في إعجاز القرآن، جلال الدين السيوطي، تحقيق: علي محمد البجاوي، دار الفكر العربي، دون طبعة أو تاريخ.

٣٩- المعجزات القرآنية، بديع الزمان سعيد النورسي، ترجمة: إحسان قاسم الصالحي، دار النيل، القاهرة، ط. (٢٠٠٦م).

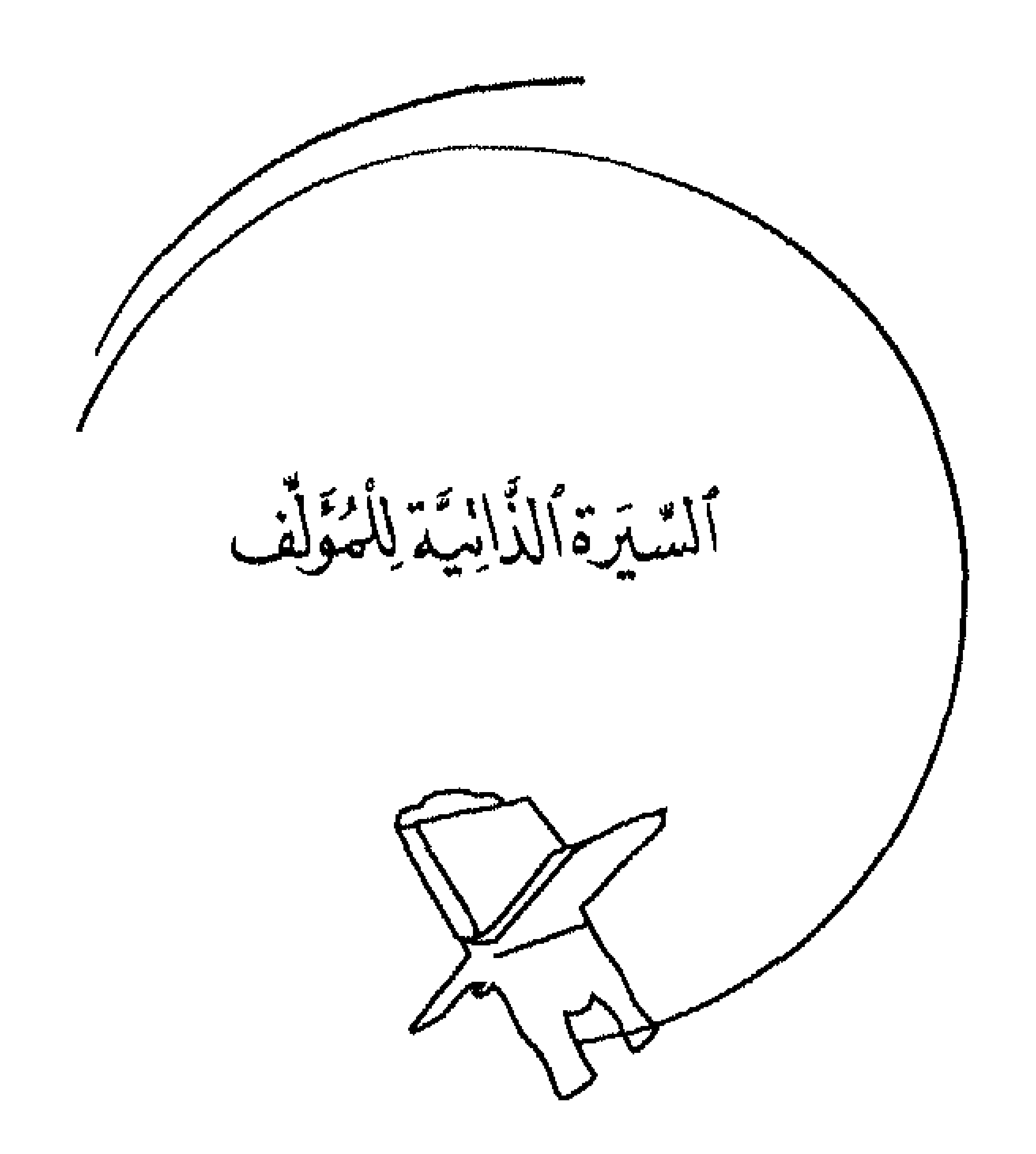
٤٠- المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبد الباقي، دار الفكر، ط. ٤، (١٤١٨ هـ - ١٩٩٧ م).

٤١- مفردات ألفاظ القرآن، الراغب الأصفهاني، تحقيق: صفوان عدنان داوودي، دار القلم، دمشق، ط. ٣، (١٤٢٣ هـ - ٢٠٠٢ م).

٤٢- نظرات في الهدي المنهاجي في سورة العلق، د. الشاهد البوشيخي، جريدة المحجة، ع (٢٧٢)، (١١/ ٠٢/ ١٤٢٨هـ / ٠٢/ ٠٣/ ٢٠٠٧ م).

٤٣- هل الكتاب المقدس كلام الله؟ أحمد ديدات، المكتبة السلفية، الدار البيضاء، دون طبعة أو تاريخ.

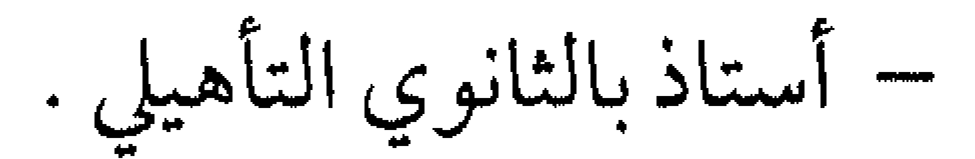
* * *



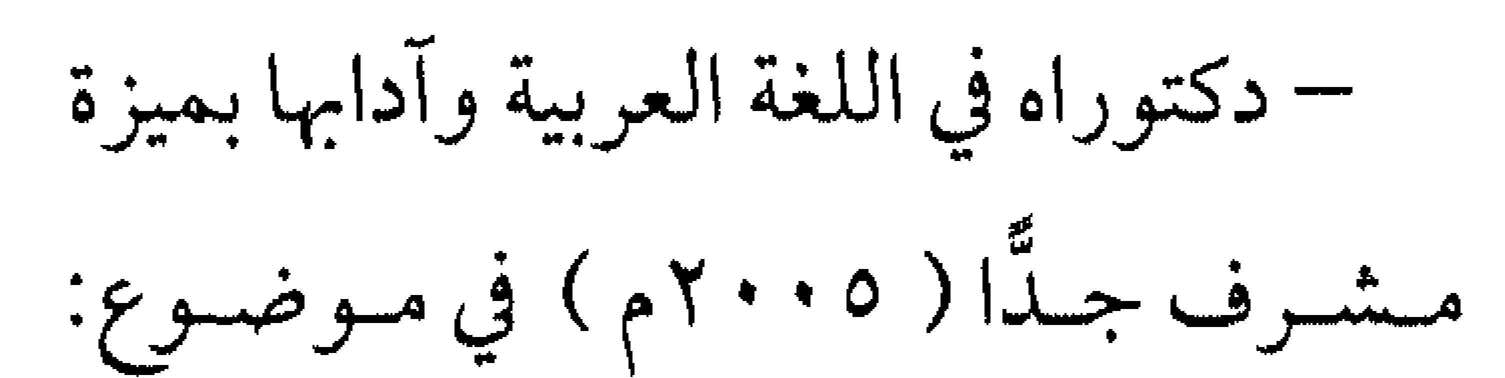
السيرة الذاتية للمؤلف



- الاسم واللقب: د . الحسين زروق .



- أستاذ بالثانوي التأهيلي .



- دكتوراه في اللغة العربية وآدابها بميزة مشرف جدًّا (٢٠٠٥م) في موضوع: « نصوص الشعر والشعراء في القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف » .
- دبلوم دراسات عليا معمقة (٢٠٠١م) .
- إجازة في اللغة العربية وآدابها (١٩٩٩م) .
- عضو رابطة الأدب الإسلامي العالمية .

أ- الكتب المطبوعة :

- **الخيل والليل**: لقطات قصصية، (١٩٩٦م) عن مطبعة النور بالدار البيضاء .

- الإسلاميون: غربة دين وتجديد وعي، (١٩٩٧م) عن دار قرطبة بالدار البيضاء .

- الإسلاميون والسلطة: (٢٠٠٠م) عن دار قرطبة بالدار البيضاء .

- الإسلاميون بين الديمقراطية والمشاركة السياسية: (٢٠٠٠م) عن دار قرطبة بالدار البيضاء .

- صريم: لقطات قصصية، (٢٠٠٢م) منشورات مجلة المشكاة.

- الحوار منهج حياة: تأملات في الحوار في القرآن الكريم، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، ط. الأولى (١٤٢٩هـ / ٢٠٠٨م).

ب- الكتب المعدة للطبع:

- نصوص الشعر والنقد لدى أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها: جمع وتوثيق وتقديم .

- نصوص الشعر والنقد لدى أبي بكر الصديق ﷺ: جمع وتوثيق .

- نصوص الشعر والنقد لدى عثمان بن عفان ﷺ: جمع وتوثيق .

- نصوص المصطلح النقدي في كتب متون الحديث: جمع وتوثيق .

- وراقية الأدب الإسلامي المعاصر بالمغرب .

- تكريم الإنسان وإكرامه في القرآن الكريم .

- الإحسان منهج في الحياة: تأملات في الإحسان في القرآن الكريم .

- السالك: لقطات قصصية .

جـ - أعمال أخرى:

- العديد من المقالات والقصص المنشورة بمجلات مغربية وعربية (الفرقان المغربية - المشكاة المغربية - البيان السعودية - منار الإسلام الإماراتية - الوعي الإسلامي الكويتية - المجتمع الكويتية - الأحمدية الإماراتية....).

- العديد من البحوث المشاركة في ندوات علمية .

- حاصل على جائزة مكتب المغرب لرابطة الأدب الإسلامي العالمية في القصة، عن المجموعة القصصية « صريم ».

- حاصل على جائزة المجلس العلمي لمدينة وجدة المغربية في القصة عن المجموعة القصصية « السالك ».

***

رقم الإيداع
٢٠٠٩ / ١٠٨٤٣
الترقيم الدولي I. S . B . N
977 – 342 – 755 – 2

(من أجل تواصلٍ بنَّاء بين الناشر والقارئ)

عزيزي القارئ الكريم . . السلام عليكم ورحمة اللّه وبركاته . .

نشكر لك اقتناءك كتابنا : « القرآن الكريم وإقامة أمة العلم » ورغبة منا في تواصلٍ بنَّاء بين الناشر والقارئ ، وباعتبار أن رأيك مهمٌّ بالنسبة لنا ، فيسعدنا أن ترسل إلينا دائمًا بملاحظاتك ؛ لكي ندفع بمسيرتنا سويًا إلى الأمام .

*** فهيّا مارس دورك في توجيه دقة النشر باستيفائك للبيانات التالية :-**

الاسم كاملاً : .... **الوظيفة :** ....

المؤهل الدراسي : ...... **السن :** ...... **الدولة :** ......

المدينة : ...... **حي :** ...... **شارع :** ...... **ص.ب :** ......

هاتف : ☐☐☐☐☐☐☐ / ☐☐☐☐☐☐☐☐☐☐ : e-mail

– من أين عرفت هذا الكتاب ؟

☐ أثناء زيارة المكتبة ☐ ترشيح من صديق ☐ مقرر ☐ إعلان ☐ معرض

....

– من أين اشتريت الكتاب ؟

اسم المكتبة أو المعرض : ...... المدينة ...... العنوان ......

....

– ما رأيك في أسلوب الكتاب ؟

☐ عادي ☐ جيد ☐ ممتاز (لطفًا وضح لِمَ) ....

....

– ما رأيك في إخراج الكتاب ؟

☐ عادي ☐ جيد ☐ متميز (لطفًا وضح لِمَ) ....

....

(من أجل تواصلٍ بنَّاء بين الناشر والقارئ)

(من أجل تواصل بنّاء بين الناشر والقارئ)

- ما رأيك في سعر الكتاب ؟ ☐ رخيص ☐ معقول ☐ مرتفع

(لطفًا اذكر سعر الشراء) . . العملة . ..

- هل صادفت أخطاء طباعية أثناء قراءتك للكتاب ؟

☐ لا يوجد ☐ نادرًا ☐ يوجد أخطاء مطبعية

لطفًا حدد موضع الخطأ . . . . . .

عزيزي انطلاقًا من أن ملاحظاتك واقتراحاتك سبيلنا للتطوير وباعتبارك من قرائنا فنحن نرحب بملاحظاتك النافعة . . . فلا تتوانَ ودَوِّن ما يجول في خاطرك : -

دعوة : نحن نرحب بكل عمل جاد يخدم العربية وعلومها والتراث وما يتفرع منه ، والكتب المترجمة عن العربية للغات العالمية - الرئيسية منها خاصة - وكذلك كتب الأطفال .

عزيزي القارئ أعد إلينا هذا الحوار المكتوب على

e-mail:info@dar-alsalam.com

أو ص.ب ١٦١ الغورية - القاهرة - جمهورية مصر العربية

لنراسلك ونزودك ببيان الجديد من إصداراتنا

هذا الكتاب

يأتي لفهم الكيفية التي تحقق
بها مجتمع العلم الأول في الإسلام، وذلك
انطلاقًا من العمل على اكتشاف آليات صياغة
العقلية العلمية لدى المسلم، والبرمجة على العلم
والمعرفة، وهي محاولة تجعل القرآن الكريم موضوعَ
بحْثِها، تنطلق معه منذ اللحظات الأولى لنزوله، ثم تغوص
فيه باحثة عن الخيوط المُشكِّلة لشبكة المعرفة التي سرعان
ما تحولت من مستوى القرآن الكريم - باعتباره
كتابًا مقروءًا - إلى واقع عملي ظهر في شكل
عطاء علمي غزير، كشف عن نفسه في
حضارة لا نظير لها.

الناشر
دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة
القاهرة - مصر - ١٢٠ شارع الأزهر - ص.ب ١٦١ الغورية
هاتف: ٢٢٧٠٤٢٨٠ - ٢٢٧٤١٥٧٨ - ٢٥٩٣٢٨٢٠ - ٢٤٠٥٤٦٤٢
فاكس: ٢٢٧٤١٧٥٠ (٢٠٢+)
الإسكندرية - هاتف: ٥٩٣٢٢٠٥ فاكس: ٥٩٣٢٢٠٤ (٢٠٣+)
www.dar-alsalam.com info@dar-alsalam.com

ISBN: 977-342-755-2

